

# الرسالة الشافية

في الإعجاز

تأليف إمام البلاغيين  
عبد القاهر الجرجاني

شرح وتفسير مع دراسته في وجوه الإعجاز  
الدكتور عبد القادر حسين





الرسالة الشافية  
في الإعجاز



# الرسالة الشافية في الإعجاز

تأليف إمام البلاغيين  
عبد القاهر الجرجاني

شرح وتفسير مع دراسة في وجوه الإعجاز  
الدكتور / عبد القادر حسين

# الرسالة الشافية في الإعجاز

شرح وتفسير  
الدكتور/ عبد القادر حسين

الكتاب: الرسالة الشافية في الإعجاز

المؤلف: الدكتور/ عبد القادر حسين

تاريخ النشر: ٢٠١١ م - ١٤٣٢ هـ

رقم الإيداع: ٢٠١١ / ٣٠٨٨

الترقيم الدولي: 978-977-463-101-6

جميع حقوق الطبع محفوظة

لدار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة - مصر

ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد  
الكتاب كاملاً أو مجزئاً أو تسجيله على أشرطة  
كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته  
على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Ghareeb for printing pub. & dist.

Cairo - Egypt

No part of this publication may be translated,  
reproduced, distributed in any form or by any  
means, or stored in a data base or retrieval  
system, without the prior written permission  
of the publisher.

الناشر:

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة والطابع:

١٢ شارع نوبار لاطوغلى (القاهرة)

تليفون: ٠٠٢٠٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس: ٠٠٢٠٢٧٩٥٤٣٢٤

التوزيع:

٣ شارع كامل صدقي الضجالة - القاهرة

تليفون: ٠٠٢٠٢٥٩١٧٩٥٩

[www.darghareeb.com](http://www.darghareeb.com)

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

منازل الكلام يعلو بعضها بعضاً، ويفضل بعضها بعضاً، والعرب في ذلك هم الأصل في حسن القول، وجمال العبارة، ومن عداهم يعدّ تبعاً لهم. فمن جاء بعدهم يحاكونهم ويسرون على منوالهم. فالعرب هم أفضل الناس قاطبة في البلاغة والخطابة، ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند.

والرسول ﷺ حين تحدى العرب أن يأتوا بمثل القرآن، تحداهم المرة تلو الأخرى، فاعترفوا بعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله في كل مرة. فالقرآن له منزلته السامية التي لا يقدر الخلق على مطاولته أو مجاراته.

عبد القادر حسين







## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### الإمام عبد القاهر الجرجاني

(٤٧١هـ)

هو الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، أخذ النحو عن الشيخ أبي الحسين محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ) ابن أخت أبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) واقتصر على الأخذ منه؛ لأنه لم يلق شيخاً مشهوراً في علم العربية غيره، حكى عنه كثيراً، ونهل من ينابيع علمه فضلاً عظيماً .

كان عبد القاهر عالماً بالنحو والبلاغة، قطع فيهما أشواطاً بعيدة، ومؤلفاته تشهد بذلك، وإماماً من كبار أئمة العربية والبيان، شافعي المذهب، متكلماً على طريقة الأشاعرة .

تمثل تراث أسلافه وخاصة المبرزين منهم كسيبويه (ت ١٨٠هـ)، والآمدي (ت ٣٧٠هـ)، وعلي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢هـ)، كما أخذ عن ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، ونقل من خصائصه صفحات كاملة في كتابه دلائل الإعجاز .

أصبح عبد القاهر قبلة طلاب العلم، يرتحلون إليه حيثما كان، يرشفون من ينابيع علمه، وينهلون من مصادر حكمته، يأخذون عنه مشافهة، أو ينقلون عنه كتابة .

من أبرز من تأثر به: الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في كتابه الكشاف في تفسير القرآن، وأفاد منه كثيراً في تطبيقاته البلاغية .

وسار الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) على نفس الدرب، فليخص كتابي عبد القاهر: الدلائل والأسرار، وعرض خلاصة ما نقل عن فكر عبد القاهر في كتابة نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، وصاغ فكره في قوالب محكمة، وقواعد ثابتة، لا تخرج عما كتبه عبد القاهر بحال من الأحوال .

وخير من أفاد من عبد القاهر: السكاكي (ت ٦٢٦هـ) الذي صاغ كتابه المفتاح - الجزء الثالث - الذي أفردته للبلاغة، ناقلاً عن عبد القاهر محتذياً حذوه، وإن كان



٩- أسرار البلاغة: ويعد من أعظم ما كتب في الأدب العربي في البلاغة والشعر.



## وفي علوم القرآن:

١٠- الرسالة الشافية في الإعجاز: وهي التي نقوم بتحقيقها وتفسيرها وهي التي بين يدي القارئ.

١١- شرح الفاتحة: ذكر في طبقات الشافعية، وطبقات ابن قاضي شهبة.

١٢- شرح على كتاب إعجاز القرآن للواسطي (ت ٣٠٦هـ).

١٣- درج الدرر: ذكره بروكلمان.

## وفي الأدب:

١٤- المختار من دواوين المتنبي والبحري وأبي تمام، منشور في الطرائف الأدبية للميمني.

وفي العروض: كتابان لم يعرف موضعهما بعد، وهما:

١٥- التذكرة: ذكر في طبقات ابن قاضي شهبة ٩٥/٢.

١٦- المفتاح: ذكر في كشف الظنون ٦٢٣/٢.

وبعد.. فهذه ترجمة موجزة تكشف عن حياة عبد القاهر الحافلة بالعلم والإبداع.. وكتبه الزاخرة بالرأي المبتكر والنظرية الفذة...



## تعمید

## إعجاز القرآن

لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ، وَأَنَّهُ مَرْسَلٌ مِنْ قِبَلِ  
اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأفضل هذه المعجزات وأبعدها أثراً وأشدّها تأييداً، هي معجزة القرآن الذي نزل بأفصح اللغات وأبلغ البيان، فقد سحر القرآن العرب منذ أن استمعوا إليه في اللحظة الأولى، سواء من شرح الله صدره للإسلام، وأنار بصيرته، أو من طُبع على قلبه وجعل على بصره غشاوة.

فالوليد بن المغيرة، وهو من أفصح العرب وأقواهم بيانًا، وأعظمهم بلاغة، يقول عن القرآن الكريم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ {المدثر: ٢٤} .

والقساوسة الرهبان: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ {المائدة: ٨٣}. فالقرآن من شأنه إذا استمع إليه إنسان أن تتحرك مشاعره، ويهتز قلبه طربًا، أو يقشعر بدنه خوفًا، أو ينعصر فؤاده رجاءً، لما فيه من جمال في الأسلوب، وقوة في العبارة، وموسيقية في الإيقاع، والله يصف كتابه بأنه ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ {الزمر: ٢٣}.

فروعة القرآن تدرك ولا توصف شأن النغم الحلو، والوزن المستقيم، فيتسلل إلى أغوار النفس، ويستقر في أعماقها. ولكن العرب كما يصفهم القرآن ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ {الزخرف: ٥٨} ، وأعداء ألداء: ﴿وَتُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ {مریم: ٩٧} ، فأخذوا يتناولون القرآن بالتشكيك تارة، فزعم بعضهم أنه في متناول أيديهم، وأنهم قادرون عليه: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ {الأنفال: ٣١} . وبالتهجم تارة أخرى، فأرجفت طائفة بأنه كذب، وقد صنعه محمد من تلقاء نفسه، وافتراه على الله: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أِفْكٌ مُّفْتَرٍ﴾ {سبا: ٤٣} ، وحرصوا على النفور



منه، وترك الإصغاء له، ودَعَوْا إلى الطعن فيه، فكانوا يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [نصرت: ٢٦] .

ولكن الله رد كيد الكافرين إلى نحورهم، وأدخل اليأس على قلوبهم حين تحدى الرسول بلغاء العرب وفصحاءهم أن يأتوا بسورة من مثله، ولكنهم عجزوا وأعرضوا عن معارضته، فكان ذلك داعياً إلى الاعتراف بإعجاز القرآن، وقصورهم أمام بلاغته.

والقرآن ليس معجزاً للعرب وحدهم، وإنما هو معجز للعربي وغير العربي؛ لأن دعوة الإسلام دعوة عالمية ليست مرتبطة بلغة معينة، ولا بوطن خاص، وإنما هي دعوة تحتوي العالم بأسره، ومن أجل ذلك كان القرآن معجزاً لجميع الأمم والأجناس.

وحجة القرآن على العرب الفصحاء كحجته على غير العرب من الأعاجم، كما أن حجة موسى عليه السلام في قلب العصا حية كانت لأمهر السحرة وغير السحرة. وحجة عيسى عليه السلام في إحياء الموتى لم تكن لأعظم الأطباء وحدهم، وإنما كانت للطبيب الماهر والخامل، وغير الطبيب على السواء، وإذا عجز أمهر السحرة وأعظم الأطباء عن الإتيان بمثل ما أتى به موسى وعيسى كان ذلك أدعى إلى عجز غيرهم.

كذلك الشأن في معجزة القرآن، أتى به محمد ﷺ لأفصح الناس وأقدرهم على نظم الكلام العربي، ورغم حرصهم على تكذيب الرسول، وإفساد دعوته، لم يفلحوا في مجاراته، ولم يستطيعوا تكذيبه .

وإذا كان العرب الفصحاء عاجزين عن مجاراة أسلوب القرآن في فصاحته وبلاغته، فغيرهم من الأعاجم أعجز .

وقد يقول قائل: إن الأعجمي الذي لا يفهم العربية لا يدرك ما في أسلوب القرآن من نظم معجز، وبلاغة عجيبة، ولا يدري من أين يكون إعجازه، وكيف تكون بلاغته، وعندئذ تسقط الحجة في الإعجاز. نقول: إن الإعجاز لغير العربي يبدو في أشياء آخر فوق البلاغة والفصاحة التي لا يدرك مراميها، فكل يوم تطلع علينا أشياء جديدة، ومكتشفات حديثة لا نجد تناقضاً بينها وبين ما في القرآن من نهج اتبعه في التعبير عنها في تناسق تام لا نفرة فيه، بحيث يدرك الأعجمي من هذا التناسق في التعبير، والدقة في الأداء القرآني الذي يتفق وما يكتشفه العلم حديثاً، سرّاً من أسرار الإعجاز في الأسلوب البياني للقرآن.



## وجوه إعجاز القرآن

محمد ﷺ النبي الأمي الصادق تحدى العرب الذين بلغوا النهاية في حسن القول وبراعة الكلام، تحداهم أن يعارضوا القرآن، فهو كلام الله، نزل به جبريل الأمين، وما كان أمره كذلك ينبغي ألا يكون في طوع البشر مجاراته أو في مقدروهم محاكاته، وقد سلك الرسول ﷺ معهم سبل الحجاج، فبدأ بالأصعب، ثم تدرج إلى الأسهل، وكلما عرض عليهم صوراً من التحدي أخفقوا واعترفوا بعجزهم، تحداهم أولاً أن يأتوا بمثل القرآن: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، فصعب عليهم الأمر واستعصى عليهم القول، فأراد الله أن يخفف عنهم، فتحداهم ثانياً أن يأتوا بعشر سور من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، فلم يأتوا بهذه السور التي تعد على الأصابع إذ لا قبل لهم بها؛ ولا طاقة لديهم بمثلها، فتدرج التحدي معهم إلى أقصى ما يمكن أن يكون عليه الأمر، تحداهم بسورة واحدة فقط، ليس شرطاً أن تكون في معنى السورة التي يعارضونها؛ بل بأي معنى من المعاني، ولكن في جمال نظم القرآن وإبداعه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]. فالله وصف رسوله في هذه الآية بالعبودية وأضاف العبودية إليه، وهذا تشريف للنبي ﷺ وتقريب له، حتى يكون الناس جميعاً عبيداً لله سبحانه لا يستكبرون عن عبادته، وإن كانوا يرتابون في القرآن، وأنه منزل من قبل الله، فليأتوا بسورة من مثله، من طوال السور أو من قصارها، وفي ذلك تقريع للمعاندين وسخرية من المكابرين، وتنديد بمن يرتاب في معجزة الرسول الأمي، ثم اشتد القرآن في القسوة عليهم حتى تنذر بهم

وطالبهم أن يدعوا من دون الله: من الناس أو الأوثان من يشهد لهم بصدقهم وقدرتهم، وحسب محمد أن يكون الله قد شهد له بالصدق في دعواه.

ثم زاد أمر التحدي والإصرار عليه، ولكن طاقتهم أضعف من احتمالها، ولذلك يقرر القرآن في جزم شديد مخاطباً المعاندين: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ {البقرة: ٢٤} بأنهم ما استطاعوا ذلك في الماضي والحاضر، ولن يستطيعوه أيضاً في المستقبل، فالخطاب للبشر جميعاً، وفي عصر الرسول وبعد عصر الرسول، ولكل الأجيال المقبلة، فهم عاجزون وإن كانوا لا يستجيبون؛ لأن الله ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، فآلبسوا الحق بالباطل، وتمادوا في جهلهم، وأصروا على عنادهم، واستكبروا استكباراً.

أجل تحداهم محمد أن يأتوا بمثل القرآن، أو أقصر سورة منه، ليس في معناها بل بأي معنى شاءوا، ولكن بجمال نظمه وحسن أسلوبه.

يقول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ): «ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم والكلام كلامهم وهو سيد عملهم، وقد فاض بيانهم حتى قالوا في الحيات والعقارب والذئاب والكلاب والخنافس، وكل ما دبّ ولاح لعين وخطر على قلب، ولهم - بعد - أصناف النظم، وضروب التأليف... ثم لا يعارضه معارض، ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر.

وهل يذعن الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز، ثم لا يبذلون مجهودهم، وهم أشد خلق الله أنفة، وأفرطهم حمية؟!»<sup>(١)</sup>.

فالقرآن معجز بنظمه، وصياغة أسلوبه، ودقة ألفاظه، والتشام بعضها ببعض، فالجمل متشابكة يرتبط بعضها مع بعض، ويدلّ أولها على آخرها.

ويستمر الجاحظ في إبراز روعة القرآن وتميزه عن غيره من الأساليب العربية، «فلو أن رجلاً من العرب قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة لتبين له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدث بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها... ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعة وتأليفه ومخرجه، لما قدر على ذلك»<sup>(٢)</sup>.



## الصَّـرْفَةُ

وإذا كان الرسول ﷺ قد طالبهم في دعوته بترك أديانهم، وهجر أوثانهم، والتضحية بأموالهم، وبذل أنفسهم في سبيل الله، وأن يصبروا ويصابروا، وأن يتخلوا عن كل ما ألفوه مما يتنافى مع الرسالة الجديدة، فقد شق الأمر على نفوسهم، وناءت به كواهلهم، وهم قد درجوا على الأنفة والحمية الجاهلية ورفض الخضوع، والإذعان للطاعة، كل هذه الصفات جعلت العرب في موقف الدفاع عن التقاليد والتمرد على الرسالة المحمدية، فتوافرت الدواعي لديهم لإبطال حجة الرسول ﷺ، وقهره أمام الناس أجمعين، إذن فدواعي المعارضة للمعجزة التي أتى بها محمد للدلالة على صدقه متوافرة، فإذا لم يقدرُوا على المعارضة ولم يجدوا إليها سبيلاً؛ كان ذلك دليلاً على عجزهم، وهل ثمة علامة للعجز أكبر من ذلك .

وليس أعجب من قول النظام<sup>(١)</sup> أحد علماء المعتزلة، من أن القرآن نفسه غير معجز، فهو في رأيه كتاب مثل سائر الكتب، لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله صرفهم عن ذلك وسلب علمهم: أي أن الإعجاز في المنع وليس في القرآن، إذ إن العرب فيهم ذلاقة لسان وانطلاق عبارة، وهم قادرون على حوك الكلام وصياغته في أسلوب جميل خلاب، أي أنهم قادرون على أن يأتوا بسورة من مثل القرآن بلاغة وفصاحة، ولكن الله صرف همهم عن مجازاة القرآن، والرجل إذا كان قادراً على القيام بشيء، وعنده الحافز والرغبة في القيام به، فسيقوم به لا محالة، فإذا توافرت له الأسباب من قدرة وحافز ورغبة، ثم لا يستطيع القيام به، فذلك شيء خارج عن العادة، إذ ليس ثمة ما يعوقه ويعجزه عن تحقيق غرضه، «كأن يأتي مثلاً نبي ومعجزته في تحريك يده، ويطلب من القوم تحريك أيديهم فيعجزون رغم صحة أبدانهم ونشاط جوارحهم، فلما لم يقدرُوا كان ذلك دليلاً على صدقه»<sup>(٢)</sup> .

(١) الألوسي: ٢٧/١، الملل والنحل: ٦٧/١، أمالي المرتضي: ١٨٧/١ .

والنظام: هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام، شيخ الجاحظ، وأحد أعمدة المعتزلة، توفي سنة ٢٢٤هـ .

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٠ .

والأمر كذلك بالنسبة للقرآن، فهو معجزة الرسول ﷺ، وطلب من القوم أن يأتوا بمثله فصاحة وبلاغة، فيظهر عجزهم وبلاغتهم، وقد وجدوا في أنفسهم ما يشبه الآفة حين عرض عليهم ما يحيل السهل صعباً، وإذا كان العائق خارجاً عن العادات صار كسائر المعجزات .

وهذا دليل ظاهر على أن أمر المعارضة ليس بأيديهم، وإنما هو خارج عن طوقهم، إذ لا يخفى على ذوي البلاغة أن صارقاً إلهياً قد صرفهم عنها، وهذا يفيد أن القرآن ليس من صنع البشر، وإنما هو معجزة الله لنبيه محمد ﷺ، وأي إعجاز أعظم من أن يعجز البلغاء عن معارضة قول في الظاهر، صرفهم الله عنه في الباطن .

والقول بالصرفة مردود: «لأن العرب ما تكلموا بمثل القرآن قط، ولم يأت منهم نظيره قبل مبعث النبي ﷺ، ولو نظموا مثله قبل مجيء الرسول لقالوا هذا مثل نظمنا، وإنما صرفنا الله عنه، ولكنهم لم يقولوا ذلك، فدل على أنهم لم يقدروا عليه لا في الحاضر ولا في المستقبل»<sup>(١)</sup> .

وإذا كان الله هو الذي سلبهم القدرة على الإتيان بمثله، فيكون المنع من الله هو المعجز، وليس في القرآن صفة الإعجاز، ولا يتميز بفضيلة عن غيره، مع أن الإجماع متفق على إضافة الإعجاز للقرآن .

والقول بالصرفة فاسد أيضاً بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ {الإسراء: ٨٨} ، إذ لو أن الله صرفهم وسلب عنهم القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم؛ لأنه يكون بمثابة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل به .

فالقول بالصرفة نظرية لا نشك في خطئها، وفيها مساس بالذات العلية لا يليق بمسلم أن يعتقده . والحق أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من الخلق، فالعربي الفصيح كان يصنع الخطبة أو يقرض القصيدة ويستفرغ فيها كل جهده، ويعود عليها بالتنقيح المرة تلو المرة، وقد يستغرق ذلك حولاً كاملاً، فإذا

(١) نكت الانتصار ص ٢٨٩ .



أما كتاب الله، فلو نزعنا منه لفظة، أو أردت أن تغير فيه كلمة ما استطعت أن تأتي بلفظة أو كلمة أخرى أفضل منها، وإذا كان العربي القديم يتميز بحسه اللغوي وقريحته النفاذة، وظهرت له براهين البراعة في نظم القرآن وعجز عنها، فإننا الآن على العجز أظهر، وبالتسليم أولى؛ لأننا قاصرون عن مرتبة العرب الأقدمين في سلامة ذوقهم اللغوي، وجودة قريحتهم في تأليف الكلام، ولو كان الإعجاز بالصرفة استعظموا فصاحة القرآن وتعجبوا لبلاغته وحسن فصاحته، والرواية المشهورة عن إعجاب الوليد بن المغيرة بالقرآن وحلاوته عند الإصغاء إليه أعظم شاهد على ذلك .



## الإخبار عن المستقبل

وزعم قوم إن إعجاز القرآن مصدره فيما تضمن من الإخبار عن الغيب، وعن أشياء تحدث في المستقبل، وقد تأكد صدق هذه الأخبار بوقوعها، وذلك ليس في قدرة البشر ولا طاقة لهم به، فمن وعد الله لنبيه<sup>(١)</sup> أنه سيظهر دين الإسلام على الأديان كلها حين قال له: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ {التوبة: ٣٣}. وقد تحقق وعد الله لنبيه ﷺ، فظهر الإسلام على غيره من الأديان الأخرى، وانتشر في شتى البقاع، وأصبحت له الغلبة حيثما كان، ولذلك كان أبو بكر رضي الله عنه إذا أرسل جيوشه للغزو عرفهم بوعد الله، وأطلعهم على نصرته لدينه الحنيف حتى يثقوا بالنصر، ويتيقنوا من الفوز، ورأى أبو بكر الصديق ذلك وصدق الله وعده.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفعل مثل ذلك في أيامه ويعدهم بالفتوح، ونشر الإسلام، فما وعدهم ربهم حقًا، ولا بد أن وعده يمضي وينفذ، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ {النور: ٥٥} وكان ذلك ما وعدهم الله تعالى، فاستخلف الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ {ال عمران: ١٢}، أي قل لليهود الذين ماثوا قريشًا بعد هزيمة المسلمين في غزوة أحد، وتمردوا عليك بنقض العهد: إنكم ستغلبون في القتال، وصدق الله وعيده، فانقلبوا مهزومين مدحورين، وغير ذلك كثير من آيات القرآن الكريم.



(١) إعجاز القرآن ص ٧٢، التمهيد ص ١٣٠، المعترك: ١/ ٢٣٩.



(۲) تفسیر الجلالین ص ۱۱۴ .

هذه الأقاصيص التي جاءت في القرآن على لسان محمد ﷺ أدهشت عقول المشركين، وحيرت ألبابهم، ودعتهم أن يزعموا زعمًا أنه كان يدرس التاريخ خفية، ويقرأ الكتب خلسة؛ ولكن الله نفى عنه افتراءهم، وفضح زعمهم، وكشف كذبهم، وجزم القرآن بأن محمدًا لم يكن لديه هو ولا قومه علم بهذه الأنبياء: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] .

فورود هذه القصص في القرآن ليس من افتراء محمد ﷺ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، ولا يخبر بشيء من تلقاء نفسه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤] ، وهذه الأنبياء دليل إعجاز القرآن؛ إذ ليس في وسع بشر أن ينبيء بمثل هذه الأخبار عن الماضي، وربما كان ذلك لأن الماضي الذي يخبر عنه محمد سابق على كل تسجيل، أو بما يجوز أن تجد له أثرًا في وثيقة<sup>(١)</sup> .

ورغم ما ذكر من قصص الأنبياء في القرآن، والتأكيد بأن محمدًا النبي الأمي لم يكن له عهد بمثل هذه القصص لا عن طريق الدراسة، ولا عن طريق مخالطة الأحرار اليهود، ولا الرهبان المسيحيين، وأتى له أن يعلم ما يعلم من تلك القصص المفصلة، ويحيط بهذه الأنبياء الدقيقة، وهو الصادق الأمين في أقواله وأفعاله؟ وأتى له أن يعلم ذلك إن لم يكن بوحي من الله وتأيد من لدنه، ورغم ذلك كله لا نستطيع أن نأخذ بهذا الرأي القائل بأن مرجع الإعجاز في القرآن إلى ما فيه من هذه الأخبار والقصص؛ لأن ذكر الأنبياء وقصصهم لم يرد في القرآن وحده؛ بل ورد في غير القرآن من الكتب المقدسة كالطورا والإنجيل وصحف إبراهيم التي لا تتصف بالإعجاز.



(١) المعقول واللامعقول ص ١٤٣، د. زكي نجيب .



## الإعجاز العددي

ذكر بعض الباحثين المعاصرين<sup>(١)</sup> أن التماثل في الأعداد والتكرار في الأرقام هو صورة من صور إعجاز القرآن التي لا يمكن للباحث أو الدارس أو القارئ أن يستعرضها إلا هو يؤمن بالإيمان الكامل المطلق أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا بوحى من الله سبحانه وتعالى لآخر أنبيائه وخاتم رسله؛ لأنه شيء فوق القدرة وأبعد من حدود العقل البشري. فهذا الوجه من الإعجاز وجه قاطع، ودليله العدد والحساب، والعدد لا يختلف والحساب لا يخطئ.

فلفظ الدنيا مثلاً قد تكرر في القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الآخرة.

ولفظ الشياطين قد تكرر في القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الملائكة.

ولفظ الموت قد تكرر في القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الحياة.

وهذا التوازن والتناسق العددي في موضوعات القرآن لا يمكن أن يكون مصادفة قدرية أو حادثة عفوية؛ لأنه توازن مقصود، وتناسق غير محدود. وهذه الأعداد المتساوية والأرقام المتماثلة في ألفاظ القرآن التي تم توزيعها في الآيات توزيعاً دقيقاً أعظم من أن تحدها طاقات بشرية، أو أجهزة حاسبة أو عقول إلكترونية.

ويرى الباحث أن التساوي في عدد الألفاظ، أو ما يطلق عليه الإعجاز العددي هو المرتبة الأولى للإعجاز، ثم تأتي الآيات بعد ذلك قمة في البلاغة والبيان وروعة في الصياغة والإتقان: أي أن بلاغة القرآن وفصاحته تأتي في المرتبة الثانية من وجوه الإعجاز بعد الأعجاز العددي الذي وضعه الباحث في المرتبة الأولى.

هذه هي فكرة الإعجاز العددي كما تصورها الباحث، وأراد أن يدلل على صحتها ويؤكددها من خلال ألفاظ كثيرة ساقها، ثم أورد ألفاظًا تقابلها في المعنى

(١) الإعجاز العددي للقرآن الكريم - عبد الرازق نوفل ٨-١٠، ١٨١، ١٩٢.

ليجد أن الألفاظ ذكرت بنفس القدر والعدد الذي ذكرت به الألفاظ التي تحمل المعنى المقابل.

وهذا الوجه أقوى من أي وجه آخر من وجوه الإعجاز؛ لأنه وجه لا يختلف في نتيجته الآراء ولا تتعدد الاتجاهات، فهو ليس بتفسير أو تأويل تتعارض فيه الاجتهادات وتتباين النظريات، ولكنه حساب وأرقام، وحقائق الحساب دائماً قاطعة، وشواهد الأرقام أبداً دامغة.

وقد وجد المؤلف أن ما توصل إليه في هذا الشأن لا بد أن ينشر وأن يذاع، وأن يعرض على أوسع نطاق، وإلى أبعد حد ليحمل الوجه الجديد للإعجاز القرآني: وهو الإعجاز العددي للقرآن الكريم.

ولعل من الطريف أن نقول: إن فكرة الإعجاز العددي ليست حديثة أو نابذة في عصرنا الذي يهتم بالأرقام والحساب وشئون الاقتصاد، وإنما هي فكرة قديمة ذكرها السيوطي في بعض كتبه، حيث نراه يشير إليها بقوله: «وقال ابن سراقه في وجوه إعجاز القرآن:

ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب، والموافقة والتأليف، والمناسبة والتصنيف والمضاعفة؛ ليعلم بذلك أهل العلم والحساب أنه عليه السلام صادق في قوله: إن القرآن ليس من عنده، إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة ولا تلقى عن أهل الحساب وأهل الهندسة»<sup>(١)</sup>.

ففكرة الإعجاز القائمة على الأعداد والحساب إذن كانت معلومة من قديم، وقد طرقت من قبل، إلا أنها لم تطرق بالتفصيل والتأكيد الذي أوضحه لنا مؤلف الإعجاز العددي، فالبذرة وإن كانت سابقة إلا أن المؤلف المعاصر استطاع أن يتعهدا بالعمل والمراجعة حتى أنبتت شجرة عظيمة لها فروع وثمار.

ويجدر بنا أن نذكر بعض الملحوظات على هذا الوجه من الإعجاز نلتزم فيها الدقة والتحقيق سواء فيما تشابه من الألفاظ أو فيما اختلف، مادامت الحسابات



يقول المؤلف: «تساوى عدد مرات ورود لفظ الشيطان، وعدد ورود لفظ الملائكة في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ (الأنفال: ١٢) (١)

ولفظ الفساد ورد في القرآن ٥٠ مرة.

أولاً: أن العرب لم يكونوا من علماء الحساب أو المهتمين بالأرقام والإحصاء، وهم وإن كانوا عرباً يشتغلون بالتجارة ويهتمون بالربح والخسارة التي تستلزم الحساب ومراجعة الأعداد، والتجارة هي قوام حياتهم والمورد الأهم لرزقهم، واهتمامهم بالربح والخسارة محور تحركاتهم، ولم يكن لهم غناء عنها في معاملاتهم الداخلية أو الخارجية على حد سواء، وقد كان التاجر يجمع من أفراد المدينة الواحدة ما يكون به قافلة تتجه إلى الشمال أو الجنوب، التماساً للشراء والبيع وطلباً للربح، ولاشك أن المسهمين في هذه القافلة برءوس أموالهم أو بإشرافهم أو بمجهودهم يفتقرون إلى معرفة نصيب كل منهم في رأس مال القافلة وأرباحها، وما كان ذلك ليتيسر إلا بالحساب ومراجعة الأعداد، سواء أكان ذلك

(١) الإعجاز العددي ص ١٧ .

بالحفظ والاعتماد على الذاكرة، أم كان بكتابة الأرقام وتدوينها، إلا أن ذلك كان بطريقة ساذجة تحفظ عليهم أموالهم ويعرفون بها ما لهم أو عليهم من ديون، وذلك لا يستلزم البراعة الكبيرة في الحساب، حتى يتحداهم القرآن فيما برعوا فيه من أعداد وحساب، اللهم إلا إذا كانت المعجزة أعجب وأعظم حين نفترض أنها جاءت لقوم لم يشتهروا بمثل ما جاءت به المعجزة، كأن يكون الإعجاز في القرآن للحساب والأرقام والإحصاء، والعرب لم تتبحر في علوم الرياضة والحساب، أو تشتهر بممارستها حتى يكون ذلك ادعى للعجز والتسليم، ربما كان الرأي كذلك كما يذهب إليه بعض الباحثين<sup>(١)</sup>، ويفضل أن ينفي الصلة بين إعجاز القرآن وفصاحة العرب، وينعي على الأقدمين الذين يربطون بينهما، «لأن القرآن يكون ادعى إلى الإعجاز والاعتراف بإعجازه، أن يكون قد بلغ هذا المبلغ من القوة والبلاغة في لغة لم يعرف أهلها القراءة ولا الكتابة من قبل، ولم يكن لهم بالتأليف عهد، فكان نزوله في هذا الجو على هذا النحو من الكمال معجزة أي معجزة، أما القول بأن كل نبي أرسل بمعجزة من نوع ما تفوق فيه أهله ليكون ذلك ادعى لتصديقه: فموسى أرسل بالسحر؛ لأن المصريين كانوا مهرة في السحر، وأن عيسى نزل بمعجزة إحياء الموتى لتفوق قومه في الطب، وأن النبي أوتي معجزة القرآن لتفوق العرب في الفصاحة، فهي نظرية مفتعلة وبراهينها غير ثابتة؛ بل الثابت أن الطب لم يكن مزدهراً أبداً في فلسطين في عهد المسيح».

ثانياً: أن التساوي في الأعداد لم يلحظ في كثير من الألفاظ المتقابلة أو المتماثلة في القرآن، فقد ذكر لفظ الأرض ومشتقاتها ٤٦١ مرة، وكلها بلفظ المفرد، ولم يذكر لفظ «أرضون» جمعاً ولا مرة واحدة.

أما لفظ السماء فقد ورد ٣١٠ مرة على هذه الصور: ١٢٠ مرة بلفظ السماء مفرداً، ١٩٠ مرة بلفظ السموات جمعاً.

والبون شاسع بين هذه وتلك، سواء من حيث العدد أو من حيث الصورة في الأفراد والجمع.

(١) مجلة الأدب، العدد الرابع، السنة الخامسة، يوليو ١٩٦٠م، د. محمد كامل حسين.



ومن الألفاظ المتماثلة نذكر: لفظ موسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام.

فقد ورد لفظ موسى ١٣٦ مرة.

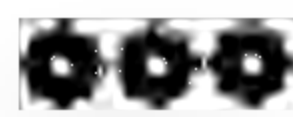
ولفظ عيسى ٢٥ مرة.

ولفظ محمد ٥ مرات، منها مرة واحدة بلفظ أحمد.

وموسى وعيسى ومحمد تجمعهم رابطة واحدة؛ هي رابطة النبوة والرسالة، والتماثل بينهم قائم، ولكن التساوي بينهم في عدد الألفاظ المذكورة في القرآن عن كل واحد منهم ليس قائماً. ونلاحظ مثل ذلك الفرق الكبير بين لفظ النبي والرسول، ولفظ الأنهار والعيون ومشتقاتهما، مما يدل على أن التساوي في بعض الألفاظ التي استشهد بها المؤلف على صحة نظريته، إنما جاءت عفواً دون قصد أو هدف.

ثالثاً: يتعجب المؤلف حين يجد أن سور القرآن وعددها ١١٤ سورة يطابق العدد الذي تكرر به لفظ الرحيم وهو ١١٤ مرة، ولم يوضح لنا العلاقة بين التساوي في عدد ألفاظ الرحيم، وعدد سور القرآن أو الغرض منه، فأسماء الله الحسنى عديدة، وكثير منها لا يطابق عددها عدد سور القرآن، ولو لاحظ معنى الرحمة في لفظ الرحيم واعتبرها في القرآن، لكان الأجدر أن يعقد الموازنة بين عدد لفظ الرحمة ذاتها، وهي تشمل «رحمتك، ورحمتنا، ورحمته، ورحمتي، والراحمين»، وعددها ١٢٠ مرة عدا ما اشتق منها من أفعال.

فالأعداد التي وردت في القرآن الكريم ليس فيها تماثل، ولا ينبغي أن تكون وجهاً من وجوه الإعجاز.



## الإعجاز العلمي بالقرآن

يروى السيوطي عن أبي الفضل المرسى أن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يُحِطْ بها علمًا إلا الله ورسوله، ثم ورث عنه معظم ذلك أعلام الصحابة حتى قال ابن عباس: لو ضاع عقل بعير لوجدته في كتاب الله<sup>(١)</sup>. ولذلك نهض العلماء على اختلاف مشاربهم وتخصصاتهم يدرسون كتاب الله دراسة متأنية دقيقة، وذهبت كل طائفة تعالج القرآن لتستخرج منه ما يتفق والعلوم التي تبحث فيها والفن الذي تشتغل به.

فالقراء تناولوا القرآن لبيان لغاته ومعرفة مخارج حروفه، وعدّ كلماته وآياته وسوره. والنحاة تناولوا القرآن من حيث البناء والإعراب في الأسماء والأفعال والحروف «حتى إن بعضهم أعرب القرآن كلمة كلمة»<sup>(٢)</sup>.

والمفسرون تناولوا القرآن من حيث دلالة ألفاظه على معانيه الظاهرة والخفية، واحتمال الألفاظ للمعاني المختلفة، وترجيح بعضها على بعض.

والكُتَّاب والشعراء وعلماء البلاغة نظروا إلى جزالة ألفاظ القرآن وبديع نظمها، وحسن اتساقها، واستخراج ما فيه من معان وبيان وبديع.

والمشتغلون بالعقيدة استخرجوا من القرآن الأدلة العقلية التي تدل على وحدانية الله وتنزيهه عما لا يليق.

وعلماء الفقه دققوا النظر وأحكموا فيه الفكر ليستخرجوا منه الحلال والحرام، والجائز والممتنع، وسائر الأحكام المتعلقة بالمواريث والوصايا وغير ذلك.

والمشتغلون بالعلوم النفسية تناولوا ما في القرآن من آيات لها دلالات نفسية، أو إحياءات رمزية، واهتموا بصفة خاصة بالآيات التي ورد فيها ذكر الأحلام والرؤى المنامية مثل رؤى يوسف عليه السلام.

(١) المعتزك: ١٧/١، والإنقان: ١٢٦/٢.

(٢) المعتزك: ١٨٠/١.



والملاحظ أن المشتغلين بعلوم القرآن قد توغلوا في استخراج العلوم المختلفة من القرآن الكريم توغلاً شديداً، حتى إنهم لم يتركوا علماً من العلوم إلا قالوا: إن القرآن قد تحدث عنه أو أشار إليه إشارة قريبة أو بعيدة، كأنهم بذلك أرادوا تطبيق الآية الكريمة: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ {الأنعام: ٣٨} ، وقوله: ﴿يَا وَيْلَتَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ {الكهف: ٤٩} ، فكل ما يحتاج إليه الناس في أمر دينهم ودنياهم قد ذكره القرآن مفصلاً أو مجملاً.

وبعض العلماء يؤكدون لنا أن بعض الآيات تحمل إشارات كونية تشير إلى إعجاز القرآن من الوجهة العلمية، ويجمل بنا أن نقول له ولغيره من العلماء الأجلاء: إن إقحام العلم في تفسير آيات القرآن لبيان كونه معجزاً لا تتفق وما نعرفه عن عقلية العرب وثقافتهم وقت نزول الوحي، فالعرب حين نزل القرآن كانوا قومًا بسطاء يعيشون على الفطرة، ويتصرفون بالسليقة، ويمارسون حياة شاقة في بيئة صحراوية، ويتنقلون على ظهور الإبل من مكان إلى مكان مهما طالت الرحلة وبعدت الشقة، وطبعي أن العرب لم يكونوا علماء يباهون الأمم بنظرياتهم العلمية، ويشغلون أنفسهم بالاكشافات التي تغير مفهم الناس عن الكون الرحيب وما فيه من عجائب فلكية، أو أشكال هندسية أو معلومات زراعية، وهم قوم يمضون حياتهم في الخيام ويقضون أوقاتهم في الرعي.

والقرآن ليس كتاب نظريات علمية مفترضة، أو شارحاً لحقائق علمية ثابتة، أو معملاً تجرى فيه التجارب ليتوصل منها إلى نتائج علمية تخالف المتعارف عليه، أو تؤكد، وإنما هو كتاب هداية للبشرية، تسعد إذا سارت على تعاليمه، وتشقى إذا ضلت عنها، وهو منهج متكامل لحياة الفرد والمجتمع لينطلق في الحدود التي رسمها له دون أن يلجأ إلى تفصيلات وجزئيات علمية، وتجارب معملية، وإنما

يدع ذلك للعقل بعد أن يأخذ حظه من التقويم ليعمل على صلاح البشرية وإسعاد الخليقة.

وتطبق النظريات العلمية على النصوص القرآنية لا يتمشى وسنة التطور، فالنص القرآني ثابت ومتيقن لا مجال للشك فيه، أما العلم فإنه متغير ومحتمل بحكم التطور الذي يطرأ عليه؛ فالنظرية العلمية التي نعتقها اليوم ونحاول تطبيق النص القرآني عليها باذلين الجهد والمشقة حتى نصل في النهاية إلى الاتفاق الكامل بين النظرية العلمية المعروفة التي بين أيدينا الآن وبين النص القرآني، هذه النظرية الثابتة اليوم قد يثبت خطأها غداً، وتتقوض بنظرية أخرى تخالفها، ومن يدرينا أن هذه النظرية الأخرى قد يطرأ عليها ما يغيرها هي أيضاً ويجعلها نظرية بالية لا قيمة لها علمياً، ولذلك ينبغي أن نتهيب كثيراً قبل أن نتورط في إقحام العلم على النصوص القرآنية.

نعم، قد يشير القرآن إلى بعض الحقائق الكونية إشارة مجملة لا تفصيل فيها، ومن الواجب أن نتفهمها ونأخذ بها؛ لأننا نستيقن من صحتها بمجرد ذكر القرآن لها، والقرآن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومادام القرآن قد ذكرها مجملة، فكل تفصيل في الظواهر الكونية من خلال النص القرآني قد يجعل القرآن نفسه عرضة للتغيير والتبديل، فالشيء إذا ذكر مجملاً في القرآن أخذنا به كما هو؛ لأنه صادق. أما ذكر التفصيلات وحشد الجزئيات والتماس العلل والأسباب فهي غير صحيحة دائماً، وغير مسلم بها أبداً، وإنما تحتمل الخطأ والصواب، ومن المجازفة أن نأخذ بالصواب في شيء ونسعى إلى تطبيقه على النص القرآني، ثم يأتي إلينا العلم نفسه في المستقبل بما ينقض ما سبق لنا الأخذ به، والثبت من صدقه، واعتباره صواباً، ليؤكد لنا فيما بعد أنه كان خطأ، ومن ثم لا ينبغي أن نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية علمية، وإنما نتقبلها فقط حين لا تخالف الحقائق المجملة التي ذكرها القرآن وقررها.

وإذا كنا لا نجد تناقضاً بين الآيات الكونية المذكورة في القرآن وبين ما يكتشفه العلم في حاضره أو مستقبله، فليس هذا دليلاً على إعجازه، وإنما هو دليل فقط



على أنه منزل من قبل الله سبحانه، و«ليس كل من نزل من السماء معجزاً، فالتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية جاءت من قبل الله، ولم توصف بالإعجاز كما وصف القرآن، ولم يقع بها التحدي كما وقع في القرآن»<sup>(١)</sup>.

ونضيف إلى ذلك أيضاً أن الآيات الكونية لا تشمل سور القرآن كلها، وهي تبلغ ١١٤ سورة، ولا آياته كلها، وهي تبلغ ٦٢٣٦ آية على أرجح الأراء، وإنما تقع فقط في بعض السور دون بعضها الآخر، وفي بعض الآيات دون البعض الآخر، وهي تبلغ ثمانمائة آية كونية كما يقول المؤلف<sup>(٢)</sup>، وهو عدد قليل إذا قيس بعدد الآيات القرآنية. ومعلوم أن التحدي قد وقع بأية سورة من سور القرآن، فكل سورة من سور القرآن فيها إعجاز لا يبلغه أحد ولن يصل إليه أحد، فلو كان القرآن معجزاً بسبب الإشارات العلمية المتفرقة في ثنايا بعض آياته لكان كثير من سور القرآن التي تخلو من مثل هذه الإشارات بعيدة عن الإعجاز، ولم يقل ذلك أحد حتى العلماء أنفسهم الذين نادوا بالإعجاز العلمي للقرآن.

وبعد فقد ذكرنا من قبل بعض وجوه الإعجاز التي رأى العلماء فيها سبباً كافياً لإعجاز القرآن، فمنها ما كان بالصرفه، ومنها ما كان من ذكر سير الأولين، ومنها ما فيه من تنبؤ بأحداث المستقبل، ومنها ما يرجع إلى التماثل العددي والتناسب في الموضوعات المتناقضة أو المتماثلة، ومنها ما فيه من إشارات تدل على حقائق علمية أثبت العلم صحتها في العصور الحديثة، وغير ذلك من وجوه الإعجاز التي ذكرناها والتي لم نذكرها.



(١) إعجاز القرآن ص ٤٧، التمهيد ص ١٢٧، المعترك: ١/ ١٠، الإنقان: ٢/ ١٢٤.

(٢) الإعجاز العلمي ص ٨.

## نظم القرآن

أما الآن فتحدث عن وجه آخر يعتبر من أهم وجوه الإعجاز في القرآن إن لم يكن أهمها على الإطلاق، وبه أخذ كثير من العلماء، ونعني بهذا الوجه نظم القرآن ووصفه بالبلاغة.

«فالقرآن إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني... واشتمل على عمود البلاغة في وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة»<sup>(١)</sup>، فقد جاء القرآن في نظمه البديع، وتأليفه العجيب متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعجز عنه البشر.

والباقلاني<sup>(٢)</sup> (ت ٤٠٣ هـ) يرد إعجاز القرآن إلى النظم، ويسوق لذلك أسباباً عدة<sup>(٣)</sup>، وقبل أن نذكر هذه الأسباب يجمل بنا أن نورد معنى النظم عند الباقلاني كما يفسره لنا حين يقول: «وليس الإعجاز في نفس الحروف، وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها، وكونها على وزن ما أتى به النبي ﷺ، وليس نظمها أكثر من وجودها متقدمة ومتأخرة، ووجود بعضها قبل ووجود بعضها بعد بعض».

### والأسباب التي ذكرها الباقلاني تلخص في:

١- إن النظم يباين المؤلف من كلام العرب، ويتميز عن أساليبهم المعتادة رغم تعدد مذاهبه وتصرف وجوهه، فالقرآن ليس سجعاً، وليس شعراً، وليس خطابة، وليس جاريّاً مجرى الرسائل.

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٤-٢٦، وانظر: أثر البلاغة في تفسير الكشاف، د. عمر الملا جويش ص ٩٢، ط. بغداد.

(٢) التمهيد ص ١٢٥، ١٢٦، إعجاز القرآن ص ٣٥-٤٧.



فأله يخبرنا أن كلام البشر يقع فيه الاختلال، ويطرأ عليه التفاوت إن امتد وطال، ولكن القرآن بما يتضمنه من القصص والمواعظ، والإعذار، والإنذار، والوعد والوعيد، والتبشير والتخويف، والسير الماثورة، وتعليم الأخلاق الكريمة والشيم الرفيعة، لا نجد فيه تفاوتاً أو اختلافاً، وإنما جاء كله على درجة رفيعة من البلاغة والفصاحة، والجمال والإبداع، وعلى حد واحد من حسن النظم وبديع الرصف، أما إذا نظرت إلى كلام البليغ الكامل، أو الشاعر المفلق، أو الخطيب المصقع رأيت التباين، ولحظت الاختلاف: فالشاعر يتفاوت شعره بحسب الأحوال، فهو بارع في معنى معين، ومقصر في معنى آخر، ومنهم من يجود في غرض ويضعف في غيره، ولكل شاعر نصيب من الإجادة في فن دون فن، ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابعة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب، وكذلك ترى الاختلاف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام.

٣- إن نظم القرآن لم يخرج عن عادة كلام الإنس وحدهم، وإنما خرج أيضاً عن عادة كلام الجن، فالعرب تعتقد في مخاطبة الجن، وروت لهم شعراً وحكت لهم كلاماً والله حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ {الاحقاف: ٢٩} ، والقدر الذي نقله الناس من ذلك تأمله النقاد فلم يجدوا فيه فصاحة تفوق فصاحة كلام الإنس، بل لعله يقصر عنها، فالجن إذن تقصر عن الإتيان بمثل القرآن كما يقصر البشر عن الإتيان بمثله، وقال عز وجل:

﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ {الإسراء: ٨٨} .

٤- إن القرآن اختار ألفاظه ليعبر عن معاني مبتكرة في وضع الشريعة والأحكام والاحتجاج في أصل الدين والرد على الملحدين، ومعلوم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعاني مبتكرة وأسباب مستحدثة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعاني، والمعاني وفق الألفاظ في انسجام تام وتأليف دقيق كانت البراعة أظهر والفصاحة أتم.

٥- إن صناديد العرب وأعيانهم ووجوههم وفصحاءهم سلموا بتقدم القرآن في الفصاحة والبلاغة، وأظهروا العجز عن معارضته، ووصفوه بالحلاوة والطلاوة، وأنه يعلو كلام البشر ولا يعلى عليه، وأما قوله تعالى حكاية عن بعضهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ {الأنفال: ٣١}، فهو قول أهل الضعف من صنعة البلاغة دون المتقدمين فيها، أو أنهم كاذبون فيما أخبروا عن أنفسهم، إذ لو كانوا صادقين وقادرين على المعارضة لما اقتصروا على الدعوى أو اكتفوا بالكلام عن المماثلة.

٦- إن ألفاظ القرآن بريئة من التعقيد والثقل، خفيفة على الألسنة، خارجة عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر، ولذلك فهو قريب إلى الأفهام، تسرع ألفاظه إلى القلب وتسبق عبارته إلى النفس، وهو مع ذلك عسير المتناول ممتنع المطلب، غير مطمع يُقدر عليه أو يظفر به، أما الانحطاط عن هذه الرتبة إلى رتبة الكلام المبذل، فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة أو يوضع فيه الإعجاز. اهـ.

ولنا أن نقول: إن موضع الإعجاز في نظم القرآن لا يعود إلى ألفاظه منفردة؛ لأن العرب كانوا يأتون بهذه الكلمات صغيرهم وكبيرهم، فصيحهم وعيهم على حد سواء، وقيمة الكلمة ليست ذاتية، وإنما تخلع عليها من الكلمات مجتمعة، ولا إلى معانيه فقط؛ لأن المعاني لا وجود لها إلا بالتعبير عنها بالألفاظ، ولا إلى إعراب الكلمات؛ لأن العرب قادرون على الإتيان بعبارات خالية من اللحن



والخطأ، والإعراب لا دخل له في الفضل والمزية، وليس هو سبب الفصاحة والبلاغة، وإن كان أساساً في نظم الكلام.

والنظم كما ذكر عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ليس في الألفاظ، ولا في المعاني، ولا في حركات الإعراب، بل في اتحاد أجزاء الكلام ودخول بعضها في بعض، وارتباط الثاني بالأول، كما يتضح في الوحدة الشاملة بين أجزاء الجملة، وبين الجملة والجملة في مجموعة من العلاقات المنظمة المتناسقة بين أطراف الكلام، وبعبارة أكثر إيجازاً: النظم عند عبد القاهر هو<sup>(١)</sup> : الأسلوب كما نسميه الآن، أو كما يحلو لعبد القادر أن يسميه: توخي معاني النحو.

وابن عطية (ت ٥٤١هـ) يؤكد أن إعجاز القرآن كان بسبب نظمه، وقد أخذ به الجمهور وأهل الفن في صنعة البلاغة فيقول: «وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحدائق وهو الصحيح في نفسه، والتحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه.

ووجه إعجازه... ترتيب ألفاظ القرآن بحيث تكون اللفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، وهكذا من أول القرآن إلى آخره، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة<sup>(٢)</sup>.

والعلوي (ت ٧٤٩هـ) ينقل عن العلماء أقوالهم في وجوه إعجاز القرآن، ويختار من بينها الفصاحة والبلاغة وجودة النظم «والذي نختاره من ذلك ما رآه الجهابذة من أهل هذه الصناعة، فإنهم عولوا على خواص ثلاث هي الوجه في الإعجاز، وهذه الخواص هي: الفصاحة في ألفاظه، والبلاغة في معانيه، وجودة النظم، وحسن السياق، فإنك ترى القرآن منظوماً على أتم نظام وأحسنه وأكمل<sup>(٣)</sup>».

أما الأستاذ فريد وجدي<sup>(٤)</sup> فقد سلك طريقاً آخر غير فصاحة القرآن ونظمه.

(١) انظر: أثر النحاة في البحث البلاغي للمؤلف ص ٣٦٨-٣٧٣ نهضة مصر.

(٢) ابن عطية: ٧١/١. (٣) الطراز: ٤٠٤/٣.

(٤) دائرة معارف القرن العشرين، مادة قرأ. المجلد ٧.

وغير الصرفة التي ذهب إليها بعض العلماء مثل النظام (ت ٢٢٤هـ)، وابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) .

فالقرآن روح من أمر الله، وله عندنا روحانية خاصة هي عندنا جهة إعجازه، والسبب الأكبر في انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة منه . . هذه الروحانية العالية هي التي قلبت شكل العالم، ووطأت للعرب عروش الأكاسرة والقيصرية في مدة وجيزة، فالله ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] ، ولا مشاحة في أن القرآن فصيح قد أخرس بفصاحته فرسان البلاغة وملوك البيان، وهو حكيم، وهو حق، وله صفات جليلة تؤثر على العقل والشعور والعواطف والميول، فتتحكم فيها تحكم الملك في ملكه . . وله فوق بلاغته وعذوبته وحكمته وبيانه روحانية يدركها من لا حظّ له في فهم الكلام وإدراك البلاغة . هذه الروحانية تظهر للعارف باللغة والجاهل بها، وظهورها للجاهل بها من الأمم الأعجمية بتأثيرها ونتيجتها.

والله وصف كتابه بأوصاف عديدة بأنه بيان وهدى وموعظة، وأنه بينات ورحمة، مما يشير بأن وجه إعجاز القرآن في وجه غير البلاغة العظيمة، حتى إن الرجل العامي والصبي الجاهل يعتريهما تهيب عند تلاوة القرآن . . ولو كانت تلاوته بصوت غير حسن .



(٥) يزلف لديه: يقرب إليه .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني رحمته الله:

١- كل معنى من المعاني يعبر عنه بلفظ خاص به حتى يؤديه كما هو، أو يعبر عنه بعبارة توضحه وتجليه، فيكون أقرب إلى الفهم وأجدر بالقبول، وخير ما يُستعان به على تقريب المعنى إلى الأفهام، أن يُوضَعَ له مثال يكشف عنه ويُؤْتَنَس به.



٢- يورد عبد القاهر مجموعة من الأقوال تبين عجز العرب حين تحداهم الرسول ﷺ إلى معارضة القرآن، واعترافهم بأن الذي سمعوه من القرآن خارج عن طوق البشر، كما ذكر أحوال الشعراء ومراتبهم، والبلغاء وتفاوتهم، ونحا في إيضاحه وبيانه إلى ما تعارف عليه علماء العربية من بلاغة القول وحسن العبارة، ويسأل الله التوفيق والسداد في هذه المهمة.



(٩) الدباجة الكريمة: الأسلوب الحسن .



٣- للكلام منازل يعلو بعضها بعضاً ويتفاضل بعضه على بعض، والأصل في حسن القول وجمال العبارة للعرب، ومن عداهم تبع لهم.

ولا يجوز للمتأخرين عن زمن النبي ﷺ أن يقولوا: إنهم زادوا على الخطباء والبلغاء في زمن النبي شيئاً؛ بل نراهم يضعون من أنفسهم ويعلون من شأن الأولين، فهم يحاكونهم ويحاولون السير على منوالهم.

والجاحظ يدعي للعرب الفضل على الناس قاطبة في البلاغة والخطابة، وينظر في ذلك غير العرب ويجهلهم ويسفه أحلامهم في إنكارهم فضل العرب، والأمر في ذلك ليس خافياً على أحد، ولا ينكره إلا جاهل أو معاند.



٤- وإذا ثبت أن الأصل والقدوة في البلاغة هم العرب، فينبغي علينا أن ننظر في أقوالهم وأحوالهم حين تحداهم الرسول ﷺ أن يأتوا بمثل القرآن، وتلى عليهم التحدي المرة تلو المرة، واعترفوا بعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله في كل مرة، ولم تكن لديهم بارقة أمل في معارضة القرآن بأي وجه من الوجوه.



(دلائل أحوال العرب وأقوالهم)

٥- أمّا «الأحوال» فدلت من حيث كان المتعارف من عادات الناس التي لا تختلف، وطبائعهم التي لا تتبدّل، أن لا يسلموا لخصومهم الفضيلة وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها، ولا يتحلّون العجز<sup>(١)</sup> وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم، كيف؟ وإن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أن بأقصى الإقليم الذي هو فيه من بئى بنفسه<sup>(٢)</sup>، ويُدلّ<sup>(٣)</sup>، بشعر يقوله، أو خطبة يقوم بها، أو رسالة يعملها، فيدخله من الأنفة<sup>(٤)</sup> والحمية ما يدعوه إلى معارضته، وإلى أن يظهر ما عنده من الفضل، ويبدّل ما لديه من المنة<sup>(٥)</sup>، حتى إنه ليتوصّل إلى أن يكتب إليه، وأن يعرض كلامه عليه، ببعض العلل وبنوع من التّمحّل هذا، وهو لم ير ذلك الإنسان قط، ولم يكن منه إليه ما يهز ويحرك ويهيج على تلك المعارضة، ويدعو إلى ذلك التّعريض.

وإن كان المدعي ذلك بمرأى منه ومنسمع، كان ذلك أدعى له إلى مبراته، وإلى إظهار ما عنده، وإلى أن يعرف الناس أنه لا يقصر عنه، أو أنه منه أفضل. فإن انضاف إلى ذلك أن يدعو الرجل إلى مماتته<sup>(٦)</sup>، ويحركه لمقاولته<sup>(٧)</sup>، فذلك الذي يسهر ليله ويسلبه القرار، حتى يستفرغ مجهوده في جوابه، ويبلغ أقصى الحد في مناقضته.

وقد عرفت قصة جرير والفرزدق<sup>(٨)</sup>، وكلُّ شاعرٍ جمعَهما عصرًا، ثم عَرَضَ بينهما ما يَهيج على المَقالَةِ، ويدعُو إلى المَفاخرَةِ والمَنافِرَةِ<sup>(٩)</sup>، كيف جَدَّ كلُّ واحدٍ منهما في مَغالِبَةِ الآخرِ، وكيف جَعَلَ ذلك هَمَّهُ ووُكْدَهُ<sup>(١٠)</sup>، وقَصَرَ عليه دهره؟ هذا، وليس به، ولا يَخْشَى إلا أن يُقْضَى لَصاحِبِهِ بأنه أشعْرُ منه، وأن خَاطِرَهُ أَحَدٌ، وقَوافِيهِ أَشْرَدُ<sup>(١١)</sup>، لا يُنَازِعُهُ مُلْكًا، ولا يَفْتَاتُ عَلَيْهِ<sup>(١٢)</sup> بَغْلَبَتِهِ لَهُ حَقًّا، ولا يُلْزِمُهُ بِهِ إِتَاوَةً<sup>(١٣)</sup>، ولا يَضْرِبُ عَلَيْهِ ضَرْبِيَّةً؟

(۱) لا يتحلون العجز: لا يدعونه . (۲) بیای بنفسه: یفخر . (۳) يدل بشعره: بیاھی به .

(٤) أنف: استكبر، أي ادعى التكبر والشموخ . (٥) المنة: القوة .

(٦) مماثته: ليظهر أيهما أمتن وأقوى في حجته . (٧) مقاولته: مفاوضته في القول أيًا كان .

(٨) جرير والفرزدق: شاعران في العصر الأموي . (٩) المنافرة: المخاصمة .

(١٠) وکده: هدفه وقصده . (١١) قوافیه اشرد: اکثر انتشاراً .

(١٢) افتات عليه: انكسر أمامه .

٥- فمن عادة الناس التي جبلوا عليها ألاّ يسلموا بالعجز وهم قادرون على دفعه، فالشاعر أو الخطيب أو الكاتب إذا بلغه من بعيد أن هناك من يفخر بشعره أو خطبته أو برسالة كتبها دخلت الحمية نفسه واشتد لمعارضته .

أما إذا كان المدعي بم رأى منه ومسمع كان ذلك أدعى إلى معارضته، وأنه لا يقصر عنه؛ بل يفوقه موهبة وأداء .

وإذا أضيف إلى ذلك أن صاحب الرسالة يدعوه إلى المعارضة ويحركه للمقابلة، كان ذلك بمثابة الدفعة له أن يبلغ أقصى ما عنده؛ ليصمد أمام الدعوة ويعمل على مناقضته والتغلب عليه .

وهذا ما حدث بين كل اثنين جمعهما عصر واحد، حدث بين جرير والفرزدق، وأبي تمام والبحتري، والمتنبي وأبي فراس، حيث جدّ كل واحد في التغلب على الآخر، وأخشى ما يخشى الشاعر أن يحكم خصمه أنه تغلب عليه، وأن شعره أجود أو خاطره أهدّ.





أَمْ هَلْ عُرِفَ فِي مَجْرَى الْعَادَاتِ، وَفِي دَوَاعِي النَفُوسِ وَمَبْنَى الطَّبَائِعِ، أَنْ يَدَّعِ  
الرَّجُلُ ذُو اللَّبِّ<sup>(٩)</sup> حُجَّتَهُ عَلَى خَصْمِهِ، فَلَا يَذْكُرُهَا، وَلَا يُفْصَحُ بِهَا، وَلَا يُجَلِّي عَنْ  
وَجْهِهَا، وَلَا يُرِيهِ الْغُلْطَ فِيمَا قَالَ، وَالْكَذِبَ فِيمَا ادَّعَى، لَا، وَلَا يَدَّعِي أَنْ ذَلِكَ

(٩) ذو اللب: ذو العقل .

٦- وإذا كان هذا حادثاً بين شخصين لا يود أحدهما من معارضة الآخر سوى أن يحكم له بالفضل، فكيف إذا كان هذا الأمر في قريش ذوي الأنفة والحمية وظهر بينهم من يدعي النبوة، ويخبر أنه مبعوث من الله للخلق كافة إنس وجن مبشراً بالجنة ومنذراً بالنار، وأنه خاتم النبيين، وقد نزل عليه كتاب تعرفون ألفاظه وتدركون معانيه، وتعجزون عن مجاراته أو الإتيان بمثل أقصر سورة منه، ثم لا تدعوهم أنفسهم إلى معارضته وبيان إسرافه في دعواه .

وقد بلغ بهم الغيظ مبلغاً شديداً حتى لقوه بكل أذى ومكروه، وهل سمع قط أن صاحب عقل استطاع أن يباري خصمه، فترك مباراته وأظهر العجز وضيق الجهد، وأنه مغلوب لم يبق أمامه سوى الخضوع والتسليم؟



أَمْ هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَخْرُجَ خَارِجٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ رِيَاةٌ، وَلَهُمْ دِينٌ وَنَحْلَةٌ<sup>(٢)</sup>، فَيُؤَلَّبَ<sup>(٣)</sup> عَلَيْهِمُ النَّاسُ، وَيُدَبَّرَ فِي إِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَفِي قَتْلِ صَنَادِيدِهِمْ<sup>(٤)</sup> وَكِبَارِهِمْ، وَسَبْيِ<sup>(٥)</sup> ذُرَارِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَعُمْدَتِهِ الَّتِي يَجِدُ بِهَا السَّبِيلَ إِلَى تَأْلُفٍ مِنْ يَتَأَلَّفُهُ، وَدُعَاءٍ مَنْ يَدْعُوهُ، دَعْوَى لَهُ، إِذَا هِيَ أُبْطِلَتْ بَطَلَ أَمْرُهُ كُلُّهُ، وَانْتَقَضَ عَلَيْهِ تَدْبِيرُهُ، ثُمَّ لَا يُغْرَضُ لَهُ فِي تِلْكَ الدَّعْوَى، وَلَا يُشْتَغَلُ بِإِبْطَالِهَا، مَعَ إِمْكَانِ ذَلِكَ، وَمَعَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُتَعَذِّرٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ؟

(١) سفه الرجل: خف وطاش وجهل.

(٢) **نحلة: مذنب وعقيلة.**

(۳) یُؤَلِّبُ عَلَيْهِمُ النَّاسَ: یعرضهم علیه ویغریهم به .

(۴) عتادیدیم: رؤساؤہم وزعماؤہم۔

(٥) سبي فرارہم: أسر اولادہم ومن خروج من اصلابہم .

(٥) سبي فرارہم: أسر اولادہم ومن خروج من اصلاہم . (٦) لم یحتسبہ: لم یتوقعہ .

(٧) البيئة: الدليل والحجة.

(۸) تنفيذ دعواه: إبطال ما ادعاه .

(۹) ويضرب عنه جملة: يتركه تمامًا .

(١٠) المهج: جمع مهجة وهي الروح .

(١١) بديًا: من أول الأمر.

(۱۲) غور تم: خد اعتم.

(١٣) أُنْقِبْهُمْ بِصِيرَةٍ: أَشْلَحْهُمْ وَأَقْوَاهُمْ حُجَّةً.



وهل جرت العادة أن يدع اللبيب حجته فلا يذكرها ولا يبدي لخصمه الغلط فيما قال، ويسرع في تسفيهه ويفرط في أذاه؟

وهل يجوز أن يواجه رجل قومًا لهم دين ورئاسة فيشير عليهم الناس، ويدبر في قتل كبارهم وأشرفهم وسبي ذراريهم وأولادهم، ثم لا يعرضون له في دعواه، مع أنه ليس بمتعذر ولا ممتنع، وإنما هو أمر سهل ميسور؟

وهل مثل ذلك إلا مثل رجل أتى بدعوى وأحضر بينة على دعواه، وعند المدعي عليه ما يبطل تلك الحجة، فيدع إظهار ذلك ويلجأ إلى الخصومة والمحاربة التي يقتل فيها القريب والصديق، ويسلب منه المال والعتاد، ثم يقول: لقد تركت مقارعتي الحجة بالحجة تهاونًا بأمره، ولو كان هذا الرجل من المجانين لما صح منه أن يفعل ذلك، فكيف يقوم هم أرجح الناس رأيًا وأثقبهم بصيرة؟



## (دلائل: الأقوال الدالة على عجز العرب حين تحذوا بالقرآن)

٧- وأما «الأقوال» فكثيرة:

منها حديث ابن المغيرة، روي أنه جاء حتى أتى قريشاً فقال: إن الناس يجتمعون غداً بالموسم، وقد فشا<sup>(١)</sup> أمر هذا الرجل في الناس، فهم سائلوكم عنه فماذا تردون عليهم؟ فقالوا: مجنون يخنق<sup>(٢)</sup>، فقال: يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحاً فصيحاً عاقلاً، فيكذبونكم! قالوا: نقول: هو شاعر، قال: هم العرب، وقد رووا الشعر، وفيهم الشعراء، وقوله: ليس يشبه الشعر، فيكذبونكم! قالوا: نقول: هو كاهن، قال: إنهم لقوا الكهّان، فإذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة، فيكذبونكم!

ثم انصرف إلى منزله فقالوا: صباً الوليد - يعنون: أسلم - ولئن صباً لا يبقى أحدٌ إلا صباً، فقال لهم ابن أخيه أبو جهل بن هشام بن المغيرة: أنا أكفيكموه<sup>(٣)</sup>، قال: فأتاه محزوناً، فقال: ما لك يا ابن أخ؟ قال: هذه قريش تجمع لك صدقةً يتصدقون بها عليك، تستعين بها على كبرك وحاجتك، قال: أولست أكثر قريش مالا؟! قال: بلى، ولكنهم يزعمون أنك صبات لتصيب من فضل طعام محمد وأصحابه، قال: والله ما يشبعون من الطعام، فكيف يكون لهم فضول؟!

ثم أتى قريشاً فقال: أتزعمن أنني صبات؟ ولعمري<sup>(٤)</sup> ما صبات، إنكم قلتم: محمد مجنون، وقد ولد بين أظهركم<sup>(٥)</sup> لم يغب عنكم ليلة ولا يوماً، فهل رأيتموه يخنق قط؟ فكيف يكون مجنوناً ولم يخنق قط؟ وقلت: شاعر؟ وأنتم شعراء، فهل أحد منكم يقول ما يقول؟ وقلت: كاهن، فهل حدثكم محمد في شيء يكون في غد إلا أن يقول: إن شاء الله! قالوا: فكيف تقول يا أبا المغيرة؟ قال: أقول هو ساحر، فقالوا: وأي شيء السحر؟ قال: شيء يكون ببابل<sup>(٦)</sup>، من حذقه<sup>(٧)</sup> فرق

(١) فشا أمر: انتشر.

(٢) مجنون يخنق: به داء وعلة.

(٣) أكفيكموه: أمتعه عن اتباع محمد.

(٤) لعمري: قسمي.

(٥) بين أظهركم: بينكم ولا يخفى عليكم أمره.

(٦) بابل: مدينة قديمة بأرض الرافدين.

(٧) حذقه: مهارته.

٧- هذه كانت أحوالهم، أما أقوالهم فكثيرة، منها: حديث ابن المغيرة- وكان سيداً في قومه، وله هبة في قريش كلها- الذي أتى مجلس قريش وقال: لقد انتشر أمر محمد والناس يأتون غداً ويسألونكم عنه، فماذا تقولون؟ وبماذا تردّون؟ قالوا: نقول: إنه مجنون، قال: يأتونه فيكلمونه فيجدونه عاقلاً فصيحاً فيكذبونكم.

نقول: إنه شاعر، قال: إن كلامه لا يشبه الشعر فيكذبونكم.

نقول: هو كاهن، قال: إن قوله لا يشبه ما يقوله الكهان.

قالت قريش: لقد أسلم الوليد، وسوف يتبعه خلق كثير في الإسلام، وخافوا على مكانتهم.





بين الرجل وامرأته، والرجل وأخيه، إنّا لله، أما تعلمون أنّ محمداً فرّق بين فلان وفلانة زوجته، وبين فلان وابنه، وبين فلان وأخيه، وبين فلان ومواليه<sup>(١)</sup>، فلا ينفعهم ولا يلتفت إليهم ولا يأتيهم؟ قالوا: بلى، فاجتمع رأيهم على أن يقولوا: إنه ساحر، وأن يردّوا الناس عنه بهذا القول.

وانصرف، فمرّ بأصحاب النبي ﷺ مُتَطَلِّقاً إلى رحله، وهم جلوس في المسجد، فقالوا: هل لك يا أبا المغيرة إلى خير؟ فرجع إليهم فقال: ما ذلك الخير؟ فقالوا: التوحيد، قال: ما يقول صاحبكم إلا سحراً، وما هو إلا قول البشر يرويه عن غيره، وعَبَسَ في وجوههم وبَسَرَ<sup>(٢)</sup> ثم أدبَر<sup>(٣)</sup> إلى أهله مُكَذِّباً، واستكبر عن حديثهم الذي قالوا له وعن الإيمان، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَرَ﴾ {المدثر: ١٨، ١٩} الآية.

٨- ومنه ما رواه محمد بن كعب القرظي قال<sup>(٤)</sup>: حَدَّثْتُ أَنَّ عُبَيْةَ بْنَ رَبِيعَةَ - وكان سيّداً حليماً - قال يوماً: أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمُهُ فَأَعْرُضُ عَلَيْهِ أُمُوراً لَعَلَّهُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهَا بَعْضُهَا، فَتُعْطِيهِ أَيُّهَا شَاءَ؟ - وذلك حين أُسْلِمَ حَمْزَةُ<sup>(٥)</sup> رضي الله عنه، ورأوا أصحاب النبي ﷺ يكثرون - قالوا: بلى يا أبا الوليد! فقام إليه، وهو جالس في المسجد وَخَذَهُ، فقال: يا ابن أخي! إِنَّكَ مَنَّا حَيْثُ عَلِمْتَ مِنَ السُّطَّةِ فِي الْعَشِيرَةِ<sup>(٦)</sup> وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَرَقَّتْ بَيْنَ جَمَاعَتِهِمْ، وَسَفَّهَتْ<sup>(٧)</sup> أَحْلَامَهُمْ، وَعَبَّتْ آلَهُتَهُمْ، وَكَفَّرَتْ مِنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرُضْ عَلَيْكَ أُمُوراً تَنْظُرُ فِيهَا، لَعَلَّكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهَا بَعْضُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُلْ، قَالَ: إِنْ كُنْتُ إِنَّمَا تَرِيدُ الْمَالَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ،

(١) الموالى: تطلق على العبيد وهو المراد هنا .

(٢) عبس وبسر: قطب وجهه وزاد عبوساً .

(٣) أدبر: عاد .

(٤) جاءت هذه الرواية في سيرة ابن هشام: ١/ ٣١٣، كما يقول الأستاذ شاکر .

(٥) حمزة هو عم النبي ﷺ .

(٦) السطة في الحسب: الشرف والمكانة .

(٧) سفهت أحلامهم: وصفت عقولهم بالسفه .

ذهب أبو جهل إلى الوليد بن المغيرة يحاول أن يثنيه عن عزمه؛ لأنه قد دخل الإسلام في ظنه .

أتى الوليد قريشاً فقال: أتزعمون أنني دخلت في الإسلام، وأقسم إنني ما فعلت .

قلتم: إن محمداً مجنون وليس هو بمجنون .

وقلتم: إنه شاعر وليس كذلك فأنتم شعراء .

وقلتم: إنه كاهن، ولا يتحدث بشيء، إلا أن يقول: إن شاء الله .

وإنما أقول: إنه ساحر يفرق بين الرجل وزوجه، وبين الأب وابنه، وبين المرء وأخيه ومواليه، فاجتمع رأيهم على الأخذ برأي الوليد بن المغيرة: بأنه ساحر .

ترك قريشاً ومر بأصحاب الرسول وهم في المسجد، فقالوا له: هل لك في التوحيد فهو خير من الشرك؟ قال لأصحاب محمد: إنه ساحر، وما قوله إلا رواية عن غيره، وعبس في وجوههم وعاد إلى أهله مكذباً مستكبراً .



٨- أسلم حمزة عم الرسول ﷺ، وتبعه جمع من الناس، فقام عتبة بن ربيعة وكان سيداً حليماً مشركاً إلى رسول الله، وهو في المسجد وحده يريد أن يغريه بترك الدعوة إلى التوحيد، قال له:

إن كنت تريد مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تصبح أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا، وإن كنت تريد ملْكاً جعلناك ملِكاً علينا، وإن كان الذي مسك طائف من الجن دعونا لك الطبيب حتى نبرئك من علّتك .



جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك<sup>(١)</sup> حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي بك رثياً لا تستطيع رده عن نفسك<sup>(٢)</sup>، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع<sup>(٣)</sup> على الرجل حتى يداوى منه، أو لعل هذا شغراً جاش به صدرك، فإنكم لعمرى بني عبد المطلب تقدرون من ذلك على ما لا تقدر عليه، حتى إذا فرغ قال له رسول الله ﷺ: أوقد فرغت؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: قل، قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حَمَّ﴾ (١) تنزيل من الرحمن الرحيم (٢) كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون (٣) بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴿فصلت: ١-٤﴾، ثم مضى فيها يقرأها، فلما سمعها عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال له: قد سمعت ما سمعت فأنت وذاك!

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به<sup>(٤)</sup>، فلما جلس قالوا: ما وراءك؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، خلوا بين<sup>(٥)</sup> هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ<sup>(٦)</sup>، فإن نصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهره على العرب به، فملكه ملككم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك بلسانه! قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.



(١) سودناك: جعلناك سيذاً .

(٢)، (٣) التابع: من الجن يلزم المريض فيبادلان الحديث، وبك رثياً: غلب عليك الشيطان وسيطر على تصرفاتك .

(٤) جاء بغير الوجه الذي ذهب به: تغير حاله وأصبح مدهوشاً متحيراً .

(٥) خلوا بينه وبين ما هوفيه: اتركوه وشأنه ولا تتعرضوا له بسوء .

(٦) نبأ: خبر .



فلما فرغ من كلامه قرأ الرسول ﷺ أول سورة فصلت حتى بلغ آية السجدة فسجد. وقال لعتبة: قد سمعت ما قرأت فأنت وذاك.

وعاد عتبة إلى قومه بوجه غير الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قال: إني سمعت قولاً ما سمعت مثله قط: ليس شعراً، ولا سحرًا، ولا كهانة، فخلوا ما بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، اعتزلوه، ولا تناوشوه، فإن أصابته العرب فقد قاموا بما كنتم تريدون القيام به دون أن تلطخوا أيديكم بدمه، وإن بذّهم وانتصر عليهم كنتم أسعد الناس به، فأنتم قومه.

قالوا: سحرك محمد بلسانه وقرآنه.

قال: قلت لكم رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.



إِنَّ لِي حَاجَةً إِلَى مَكَّةَ، فَاذْهَبْ فَرَاثٌ<sup>(١)</sup>، فَقُلْتُ: مَا حَبْسَكَ؟<sup>(٢)</sup>، قَالَ: لَقِيتُ رَجُلًا يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَهُ، فَقُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ شَاعِرٌ، سَاحِرٌ، كَاهِنٌ. قَالَ أَبُو ذَرٍّ: وَكَانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعْرَاءِ، قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ<sup>(٣)</sup> الشُّعْرَاءِ فَلَمْ يَلْتَمِمْ<sup>(٤)</sup> عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكُهْنَةِ فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَصَادِقٌ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.



١٠- ومن ذلك ما روي أن الوليد بن عتبة أتى النبي ﷺ فقال: اقرا، فقرا عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، فقال: أعد، فأعاد، فقال: والله إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أسفلهُ لمُعْرِقٌ<sup>(٥)</sup>، وإنَّ أعلاه لمُشْرِ، وما يَقُولُ هذا بشرٌ.



(٥) معرق: بضرب في الأعماق ويؤثر في النفس .

٩- ومنه ما رواه أبو ذر رضي الله عنه قال: قال لي أخي أنيس: إنه كان له حاجة فانطلق إلى مكة فأبطأ عليه، فقال له: ما سبب تأخيرك؟ قال: لقيت رجلاً يقول: إن الله أرسله، ويقول الناس: إنه شاعر، ساحر، كاهن.

وكان أنيس شاعراً يدرك الشعر وأقوال الشعراء، فقال: إن ما يقوله هذا الرجل لا يدخل في أوزان الشعر ولا بحوره، وليس من طرائقه أو أنواعه .  
وليس كاهناً، فأقواله ليست كأقوال الكهنة، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.



١٠- ومنه إعجاب الوليد بن المغيرة<sup>(١)</sup> حين استمع إلى بعض من آي القرآن، وطلب إعادتها مرة بعد أخرى، ثم قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفلهُ لمتمد إلى الأعماق، وإن أعلاه لمثمر في السماء، وما يقول هذا بشر؛ إذ لا يقدر على قوله أحد من الناس.



(١) في النص: الوليد بن عقبة .



## (الاحتجاج لدلالة هذه الأحوال والأقوال على إعجاز القرآن)

١١- واعلم أنه لا يجوز أن يقال في هذا وشبهه إنه لا يكون دليلاً حتى يكون من قول المشرّكين بعضهم لبعض، حين خلّوا بأنفسهم فتفاوضوا وتحاوروا وأفضى بعضهم بذات نفسه إلى بعض - وإن كان منه من كلام المؤمنين، أو ممن قاله ثم آمن، فإنه لا يصحُّ الاحتجاجُ به في حكم الجدَل، من حيث بصير كأنك تحتج على الخصم برأي تراه أنت، ويقول أنت تقوله، وذلك أنه إنما يمتنع أن يدلَّ إذا صدر القولُ مصدر الدعوى والشيء يدفعه<sup>(١)</sup> الخصم وينكره، فأما ما كان مخرجه مخرج التنبيه على أمر يعرفه ذوو الخبرة، وأطلقه قائله إطلاق الواثق بأنه معلوم للجميع، وأنه ليس من بصير يعرف مقادير الفضل والنقص إلا وهو يُخَوِّج إلى تسليمه والاعتراف به شاء أم أبى<sup>(٢)</sup> - فهو دليلٌ بكل حال، ومن قول كل قائل، وحجة من غير مثبوتة<sup>(٣)</sup>، ومن غير أن يُنظر إلى قائله أموافق أم مخالف، ذاك لأن الدلالة ليست من نفس القول وذات الصفة، بل في مصدرهما، وفي أن أخرجاً مخرج الإخبار عن أمر هو كالشيء البادي للعيون، لا يُعمل أحدٌ بصره إلا رآه.

١٢- وإذا رأينا «الأحوال» و«الأقوال» منهم قد شهدت، كالذي بآن باستسلامهم للعجز وعلمهم بالعظيم من الفضل والبائن<sup>(٤)</sup> من المزية، الذي إذا قيس إلى ما يستطيعونه ويقدرّون عليه في ضروب النظم وأنواع التصرف، فاته الفوت الذي لا يُنال<sup>(٥)</sup>، وارتقى إلى حيث لا نطمع إليه الآمال، فقد وجب القطع بأنه معجز.

ذلك لأنه ليس إلا أحد الأمرين: فإما أن يكونوا قد علموا المزية التي ذكرنا أنهم علموها على الصّحة - وإما أن يكونوا قد توهّموها في نظم القرآن، وليست هي فيه لغلط دخل عليهم. ودعوى الثاني من الأمرين سُخْفٌ<sup>(٦)</sup>؛ فإن ذلك لو ظن بالواحد منهم لبعْد، ذلك لأنه لا يتصور أن يتوهّم العاقل في نظم كلام، جلُّ مناه<sup>(٧)</sup> ومُنَى

(٢) أبى: رفض.

(١) يدفعه الخصم: يردّه.

(٤) البائن عن المزية: الخارج عن الفضل.

(٣) من غير مثبوتة: من غير استثناء.

(٦) سُخْفٌ: هزيل وباطل.

(٥) فاته الفوت: فاته الأمر العظيم.

(٧) جل مناه: معظم أمنيّاته.

١١- وما روي عن الوليد بن المغيرة وأبي ذر والوليد بن عقبة وغيرهم ممن وصفوا القرآن بالحلاوة والطلاوة، لا يقال: لا يصح الاحتجاج به؛ لأنك تحتج على الخصم برأي تراه أنت، ويقول تقول أنت؛ إذ يمتنع الاحتجاج إذا ادعيت شيئاً والخصم ينكره. أما إذا كان الإعجاب من شخص مجرب له خبرة، ويقول قولاً يعلمه الجميع ولا ينكرونه، سواء وافق رغبتهم أم خالفها، فلا شك أن ذلك يكون حجة على الجميع دون استثناء؛ لأنه خبر ظاهر للعيان، ولا يعمل أحد بصره إلا رآه.

١٢- وإذا رأينا أحوالهم وأقوالهم تشهد بعجزهم، وأن نظم القرآن يرتقي إلى مكانة لا تبلغها الآمال، فقد تأكد لهم أن القرآن معجز، إذ لا يخلو من أحد أمرين:

إما أنهم علموا المزية في القرآن على الحقيقة، وإما أنهم توهموا المزية في نظم القرآن وليست هي فيه على الحقيقة.

والأمر الثاني باطل؛ إذ لا يتصور أنهم يستطيعون معارضة القرآن، ويقدرّون على إفحام الخصم، ثم يقولون: إن ما في القرآن من مزية وفضل يرجع إلى الوهم والخطأ، وإذا صدر هذا القول من أحدهم فكيف يشملهم جميعاً، وكيف يكون الأمر كذلك وهم أرباب فصاحة يميزون الكلام الحسن من الرديء، ويعرفون القائل إذا تليت عليهم قصيدة شعر دون أن يذكر اسم القائل، ويعرفون الغرض من القصيدة إذا كان فيها بيت من الشعر يطلب فيها الشاعر المنح والعطاء، وذلك لشدة تمرسهم بقرض الشعر، فكيف يصح الغلط أو التوهم منهم؟ وإذن فقد زالت الشبهة واتضح إعجاز القرآن لهم.

قِيلَ لَهُمْ: هَذَا الْفَضْلُ عَلَى مَا فِيهِ لَا يَقْدَحُ فِي مَوْضِعِ الْحُجَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا كَمَا يَخْفَى، يَرْوُونَ أَشْعَارَ الْجَاهِلِينَ وَخُطْبَهُمْ، وَيَعْرِفُونَ مَقَادِيرَهُمْ فِي الْفَصَاحَةِ مَعْرِفَةً مِنْ لَا تُشْكَلُ<sup>(٤)</sup> جِهَاتِ الْفَضْلِ عَلَيْهِ، فَلَوْ كَانُوا يَرُونَ فِيمَا رَوَوْا وَحَفَظُوا مَزِيَّةَ عَلَى الْقُرْآنِ أَوْ رَأَوْهُ قَرِيبًا مِنْهُ، أَوْ بَحِثُ يَجُوزُ أَنْ يُعَارَضَ بِمِثْلِهِ، أَوْ يَقَعَ لَهُمْ إِذَا قَاسُوا أَوْ وَازَنُوا أَنَّ هَذَا الَّذِي تُحَدُّوا إِلَى مُعَارَضَتِهِ لَوْ تُحَدِّدِي إِلَيْهِ مَنْ قَبْلَهُمْ لَا سِتْطَاعُوا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، لَكَانُوا يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْكُرُونَهُ، وَلَوْ ذَكَرُوهُ لَذَكَرَ عَنْهُمْ، وَمُحَالٌ - إِذَا رَجَعْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا وَاسْتَشْفَقْنَا<sup>(٥)</sup> حَالَ النَّاسِ فِيمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ<sup>(٦)</sup> - أَنْ

(۲) استرفده: طلب رفته و عطاءه .

(۴) لا یشکل: لا یغیب ولا یختلط بغيره.

(٥) استشفقنا حال الناس: تأملنا أحوالهم.



١٣ - وثمة اعتراض آخر: فقد علمنا أنهم يجلبون شعراء الجاهلية، ويضعونهم موضع القمة في الشعر، وخاصة أصحاب المعلقات كامرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى من الذين كتبت قصائدهم بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة. فمن أين لنا أن نعرف إذا تحدوا إلى معارضة القرآن لقاموا بها وأمكنهم الإتيان بمثل نظمه؟

قيل لهم: هذه حجة لنا وليست حجة لكم، فأنتم تروون الشعر وتعرفون قدر الشاعر، فلو وجدتم في الشعر مزية تفضل القرآن، أو توازيه، أو تكون قريبة منه لذكرتم ذلك، ولو ذكرتموه لذكر عنكم، ولما قرعكم أحد بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن شبهًا أو نظمًا، وإذا كان شعر الفحول مثل القرآن الذي تدعيه، لما جاز لنا أن نلوذ بالصمت، ونسلم بإعجاز القرآن.

ومعلوم أنهم لم يقولوا: إن أشعارهم وأشعار الأقدمين منهم لها مزية مثل مزية القرآن.

وقد ثبت أنهم لم يقولوا ذلك، وإنما كانوا بين أمرين:

إما أن يسلموا بالعجز والقصور، وإلا قبل لهم بالإتيان بمثل القرآن فصاحة ونظمًا حين يخلوا بعضهم إلى بعض.



يكونوا قد عَرَفُوا لِمَا تُحَدِّثُوا إِلَيْهِ وَفَرَّعُوا<sup>(١)</sup> بالعجز عنه شَبَهَا وَنَظْمًا، ثُمَّ يَتَلَى عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا<sup>(٢)</sup>﴾ {الإسراء: ٨٨}، فلا يزيدون في جوابه على الصمت، ولا يقولون: «لقد رويانا لمن تقدّم ما علمت أنه لا يقصّر<sup>(٣)</sup> عما أتيت به، فمن أين استجزت أن تدّعي هذه الدّعوى؟».

فإذا كان من المعلوم ضرورة أنهم لم يقولوا ذلك، ولا رأوا أن يقولوه، ولو على سبيل الدّفع والتّلبيس والتّشغّب بالباطل<sup>(٤)</sup>، بل كانوا بين أمرين: إمّا أن يُخبروا عن أنفسهم بالعجز والقصور، وذلك حين يخلو بعضهم ببعض، وكان الحالُ حالَ تصادُق<sup>(٥)</sup> - وإمّا أن يتعلّقوا بما لا يتعلّق به إلا من أعوزته<sup>(٦)</sup> الحيلة، ومن فُل<sup>(٧)</sup> بالحجّة، من نسبته إلى السحر تارةً، وإلى أنه مأخوذ من فلان وفلان أخرى، يُسمّون أقوامًا مجهولين لا يُعرفون بعلم، ولا يُظنّ بهم أن عندهم علمًا ليس عند غيرهم - ثبت أنهم قد كانوا علموا أنّ صورة أولئك الأوائل صورتهم، وأنّ التقدير فيهم أنهم لو كانوا في زمان النبي ﷺ، ثم تحدّثوا إلى معارضته، لكانوا في مثل حال هؤلاء الكائنين في زمانه حالهم، وإذا كان هذا هكذا، فقد انتفى الشك، وحصل اليقين الذي تسكن معه النفس، ويطمئنّ عنده القلب، أنه مُعْجَزُ ناقض للعادة، وأنه في معنى قلب العصا حيّةً، وإحياء الموتى، في ظهور الحجّة به على الخلق كافّةً، وبأن أن قد سعد المؤمنون وخسر المبطلون. والحمد لله ربّ العالمين على أن هدّانا لدينه، وأنا قلوبنا ببرهانه ودليله، وإياه جلّ وعزّ نسأل التّثبيت على ما هدّى له، وإتمام النّعمة بإدامة ما خوّله<sup>(٨)</sup> بفضله ومنّه.



(١) فرعوا: وبخوا.

(٢) ظهيراً: معيناً.

(٣) لا يقصّر: لا يقل.

(٤) الدّفع: الرد، التّلبيس: التّخليط، والتّشاغّب: تصنع الشعب.

(٥) تصادق: تصاف.

(٦) أعوزته الحيلة: افتقدها.

(٧) فل بالحجّة: هزم وانكسر.

(٨) إدامة ما خوّله: أن يدوم ما منحه بفضله وعطائه.

وإما أن ينسبوه إلى السحر تارة، وأنه من أساطير الأولين تارة أخرى إذا أعوزتهم الحيل وانقطعت الحجة.

وثبت لديهم أن صورة البلغاء من الأوائل لا تختلف عن صورتهم، وأنهم لو كانوا في زمن النبي ﷺ وتحداهم بالقرآن لكان حال الأولين مثل أحوالهم في زمن الرسول ﷺ.

وإذا كان الأمر كذلك فقد انتفى كل شك بأن القرآن غير معجز وغير ناقض للعادة، وهو معجزة مثل قلب العصا حية، وإحياء الموتى في ظهور حجته علي الخلق جميعاً.





## فصل (في شبهة)

١٤ - واعلم أن ههنا باباً من التليس<sup>(١)</sup> أنت تجده يدور في أنفُس قوم من الأشقياء، وتراهم يؤمنون إليه، ويهمسون به، ويستهوون الغر<sup>(٢)</sup> الغبي بذكره، وهو قولهم: «قد جرت العادة بأن يبقى في الزمان من يفوت<sup>(٣)</sup> أهله حتى يسلموا له، وحتى لا يطمع أحد في مداناته<sup>(٤)</sup>»، وحتى ليقع الإجماع منهم أنه الفرد الذي لا ينزع<sup>(٥)</sup>، ثم يذكرون أمراً القيس والشعراء الذين قدموا على من كان معهم في أعصارهم<sup>(٦)</sup>، وربما ذكروا الجاحظ وكل مذكور بأنه كان أفضل من كان في عصره، ولهم في هذا الباب خبط وتخليط لا إلى غاية، وهي نفثة<sup>(٧)</sup> نفثها الشيطان فيهم، وإنما أتوا من سوء تدبرهم لما يسمعون، وتسرعهم إلى الاعتراض قبل تمام العلم بالدليل، وذلك أن الشرط في المزية الناقضة للعادة، أن يبلغ الأمر فيها إلى حيث يبهر ويقهر، حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة، وتخرس الألسن عن دعوى المداناة، وحتى لا تحدث نفس صاحبها بأن يتصدى، ولا يجول في خلد<sup>(٨)</sup> أن الإتيان بمثله يمكن، وحتى يكون بأسهم وإحساسهم بالعجز عنه في بعضه، مثل ذلك في كله.



١٥ - وليت شعري<sup>(٩)</sup>، من هذا الذي سلم لهم أنه كان في وقت من الأوقات من بلغ أمره في المزية وفي العلو على أهل زمانه هذا المبلغ، وانتهى إلى هذا الحد؟ إن قيل: «امرؤ القيس»، فقد كان في وقته من يباريه ويماتته<sup>(١٠)</sup>، بل لا يتحاشى من أن يدعى الفضل عليه فقد عرفنا حديث «علقمة الفحل»، وأنه لما قال امرؤ القيس، وقد تناشدا: «أينا أشعر؟» قال: «أنا» غير مكترث ولا مبال، حتى قال امرؤ القيس: «فقل وأنعت فرسك وناقتك، وأقول وأنعت فرسي وناقتي»، فقال علقمة: «إني فاعل، والحكم بيني وبينك المرأة من ورائك»، يعني أم جندب امرأة امرئ القيس، فقال امرؤ القيس:

(١) باباً من التليس: من الخلط. (٢) الغر: الساذج الجاهل. (٣) يفوت الناس: يسبقهم.  
(٤) مداناته: القرب منه. (٥) لا ينزع: لا يقاوم. (٦) أعصارهم: عصورهم.  
(٧) نفثة: نفخة، هبة. (٨) لا يجول في خلد: لا يخطر بذهن.  
(٩) ليت شعري: ليت علمي. (١٠) يماتته: يصلب أمامه ويشدد معه.

## فصل

١٤- وهناك أمر آخر يحاولون الخلط فيه، يستهترون به الجاهل الغافل، وهو قولهم:

إن كل عصر فيه أفذاذ سبقوا الناس ولم يدانيهم أحد، مثل امرئ القيس شاعر الجاهلية، والجاحظ أمير البيان، وأسرعوا يعترضون بهذه الدعوى، وهي دعوى فاسدة؛ لأن من شرط الأمر الذي يخالف العادة أن تنقطع الأطماع دون معارضته، ولا يمكن أن يتصدى له أو يأتي بمثله، فيكون الإحساس بالعجز، واليأس من القرب منه شامل لجميعه كما هو شامل لبعضه.



١٥- ثم إن هذه قضية لا نسلم بها، فقد كان في زمن امرئ القيس من يباريه ويتغلب عليه، ويدعي الفضل دونه، وحديثه مع علقمة الفحل الشاعر مدون في كتب الأدب، فقد تباريا في الإنشاد، ووصف كل منهما فرسه وناقته، واحتكما لامرأة تسمى أم جندب، امرأة امرئ القيس، ففضلت علقمة على زوجها امرئ القيس.



وَلَمْ يَكُ حَقًّا كُلُّ هَذَا التَّجَنُّبِ  
وَنَحَاكُمَا إِلَى الْمَرْأَةِ، فَقَضَلْتُ عَلْقَمَةَ<sup>(٢)</sup>.



أَحَارِ أُرِيكَ بَرْقًا هَبَّ وَهَنَا كَنَارِ مَجُوسٍ تَسْتَعِرُّ اسْتِعَارًا<sup>(٣)</sup>  
 ما هو مشهور، حتى قال امرؤ القيس: لا أمانتك بعد هذا<sup>(٤)</sup>.



١٧- ثم وجدنا الأخبار تدلُّ على خلاف لم يزل بين الناس فيه وفي غيره، أي أشعر؟ وعلى أي لم يستقرَّ الأمر في تقديمه قرَّاراً يرفعُ الشكَّ. روى أن أمير المؤمنين علياً، رضوان الله عليه، كان يُفطرُ النَّاسَ في شهر رمضان، فإذا فرغ من العشاء تكلم فأقلَّ، وأوجز فأبلغ. قال: فاختصم النَّاسُ ليلةً في أشعر الناس، حتى ارتفعت أصواتهم، فقال رضوان الله عليه لأبي الأسود الدؤلي<sup>(٥)</sup>: قل يا أبا الأسود، وكان يتعصب لأبي دؤاد، فقال أشعرهم الذي يقول:

وَلَقَدْ أَغْتَدَىٰ يُدَافِعُ رُكْنِي  
مَخْلَطٌ مَّزِيلٌ مَّكَرٌ مَّفَرٌ  
سَلَهَبٌ شَرْجَبٌ كَأَنَّ رَمَاحًا

(٢) تحاكما إلى المرأة: جعلها حكماً وقاضياً .

(٤) لا أمانتك بعد هذا: لا أعارضك .

(٦) الأحوذى: السريع الجري، ذو ميعة: ذو نشاط، إضريح: يتفصد عرفاً، وهي صفة مدح، مزبل: خفيف الحركة، منفح: جسور، مطرح: بعيد الخطو، سبوح: يمد يديه في الجري، خروج: طويل العنق، سلهب: طويل، شرجب: طويل القوائم، وفي السراة دموج: في الظهر إحكام.



١٦- وجرى بين امرئ القيس والحارث الشكري أمر مثل هذا، حتى قال امرؤ القيس: لا أباريك ولا أعارضك بعد هذا.



١٧- وما زال الخلاف واقعاً بين الناس، فلم يجمعوا على سبق واحد من الشعراء على غيره .

تروى الأخبار: أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه اختصم الناس في مجلسه: أي أشعر الشعراء، حتى ارتفعت أصواتهم، وكان عليّ يفضل أبا دؤاد ولكنه قال: كل شعرائكم محسن، وإن يكن أحدهم أفضل من غيره، فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة: امرؤ القيس فقد كان أصحهم قولاً، وأجودهم طُرفة.



فأقبل أمير المؤمنين - رضوان الله عليه - على الناس فقال: كل شعرائكم مُحْسِنٌ، ولو جَمَعَهُمُ زَمَانٌ وَاحِدٌ وَغَايَةُ مَذْهَبٌ وَاحِدٌ فِي الْقَوْلِ، لَعَلَّمْنَا أَيُّهُمْ أَسْبَقُ إِلَى ذَلِكَ، وَكُلُّهُمْ قَدْ أَصَابَ الَّذِي أَرَادَ وَأَحْسَنَ فِيهِ، وَإِنْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ أَفْضَلَ، فَالَّذِي لَمْ يَقُلْ رَغْبَةً وَلَا رَهْبَةً: أَمْرُ الْقَيْسِ بْنِ حَجْرٍ، كَانَ أَصَحَّهُمْ بَادِرَةً، وَأَجُودَهُمْ نَادِرَةً<sup>(١)</sup>.



١٨ - وعن ابن عباس أنه سَأَلَ الْخَطِيئَةَ: مَنْ أَشْعَرَ النَّاسَ؟ قَالَ: أَمِنَ الْمَاضِينَ أَمْ مِنَ الْبَاقِينَ؟ فَقَالَ: إِذَنْ مِنَ الْمَاضِينَ، فَهُوَ الَّذِي يَقُولُ:  
وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرِضِهِ يَفْرَهُ<sup>(٢)</sup>، وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمُ  
وما الذي يقول:

وَلَسْتُ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثٍ<sup>(٣)</sup>، أَيُّ الرَّجَالِ الْمُهَذَّبُ  
- بدون ذلك، ولكن الضراعة<sup>(٤)</sup> أفسدته كما أفسدت جرولاً - يعني نفسه - والله  
يا ابن عباس لولا الجشع والطمع لكنت أشعر الماضين، فأما الباقون فلا أشك أنني أشعرهم.



١٩ - وقالوا: كان الأوائل لا يفضلون على زهير أحداً في الشعر ويقولون:  
«قد ظلمه حقّه من جعله كالنابغة»، قالوا: «وعامة أهل الحجاز على ذلك». وعن  
ابن عباس أنه قال: سامرت<sup>(٥)</sup> عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - ذات ليلة،  
فقال أنشدني لشاعر الشعراء، فقلت: وَمَنْ شَاعِرُ الشُّعْرَاءِ؟ قَالَ: زُهَيْرٌ، قُلْتُ:  
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمْ كَانَ شَاعِرَ الشُّعْرَاءِ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ وَخْشِي<sup>(٦)</sup> الْكَلَامَ فِي  
شِعْرِهِ، وَلَا يُعَازِلُ<sup>(٧)</sup> بَيْنَ الْقَوْلِ.

(١) أضحهم بادرة: أبعدهم عن الخطأ، وأجودهم نادرة: أحسنهم طرفة.

(٢) يفره: يحفظه من العيب. (٣) لا تلمه على شعث: تقبله على عيبه.

(٤) الضراعة: الخنوع. (٥) سامرته: حادثته ليلاً.

(٦) وخشي الكلام: غريبه.

(٧) يعاظم: تركيب الكلام بعضه على بعض مما يؤدي إلى صعوبة فهمه.

١٨- وسأل العباس رضي الله عنه الخطيئة الشاعر: من أشعر الناس؟

قال: زهير، ومثله النابغة لولا أنه يتضرع ويتذلل، مما أفسده كما أفسدني، ولولا الطمع لكنت أشعر الماضين، أما المحدثون فأنا أشعرهم لاشك في ذلك.



١٩- وكان الأوائل منذ فجر الإسلام لا يفضلون أحداً على زهير، وأهل الحجاز يروونه أفضل من غيره من الشعراء، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يعدّه شاعر الشعراء؛ لأنه لا يتتبع غريب الكلام، ولا يدخل الألفاظ بعضها في بعض فيسلم شعره إلى التعقيد.





هذا، وفي حاجة المنصور إلى أن يسأل عن أشعر الشعراء، وقد مضى الدهر بعد الدهر، دليل على أن لم يكن الذي روي من تفضيله قولاً مجمعا عليه من أصله وفي أول ما قيل، وأنه كان كالرأي يراه قوم وينكره آخرون، وأن الصورة كانت كالصورة مع جرير والفرزدق، وأبي تمام والبحري. ذاك لأنه لو كان القول بأنه أشعر الناس قولاً صدر مصدر الإجماع في أوله، وحكما أطبق<sup>(٤)</sup> عليه الكافة حين حكم به، حتى لم يوجد مخالف، ثم استمر كذلك إلى زمان المنصور، لكان يكون محالاً أن يخفى عليه حتى يحتاج فيه إلى سؤال حماد - وكان يكون كذلك بعيداً من حماد أن يبعث إليه مثل المنصور، في هيئته وسلطانه ودقة نظره وشدة مؤاخذته، يسأله فيجازف له في الجواب، ويقول قولاً لم يقله أحد، ثم يطلقه إطلاق الشيء الموثوق بصحته، المتقدم في شهرته، فتدبر ذلك.

(۲) یزری بصاحبہ: یدنی بمنزلتہ.

(٤) أطبق عليه الكافة: أجمعوا عليه جميعاً.

٢٠- ويروى عن أبي عبيدة- من أشهر اللغويين وصاحب مجاز القرآن- أن أشعر الشعراء ثلاثة: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني. وروي أيضاً عن حماد الراوية حين سأله الخليفة المنصور عن أشعر الناس، قال: الأعشى صنّاجة العرب. فلم يتفقوا على من أشعر الناس، وإنما اختلفوا في ذلك اختلافاً بيناً.



٢١- فإذا كان امرؤ القيس أشعر الشعراء، وكان غيره أفضل منه على سبيل الاستحسان والمبالغة مما لا يعيب امرأ القيس، وإذا كان بعضهم يفضل امرأ القيس، فلا يمنع أن يكون له أكفاء ونظراء يسوغ لهم دعوى مساواته، والتصدي لمباراته. وقد مضت الأزمان ولم يكن أحد من الشعراء مجمعاً على تفضيله، وإنما هو رأي يراه قوم وينكره آخرون، كما كان الخلاف حول جرير والفرزدق، وأبي تمام والبحري. ولو كان ثمة إجماع على شاعر بأنه أفضل الشعراء، واستمر ذلك إلى زمن المنصور لما كانت به حاجة إلى السؤال عن أشعر الشعراء، وأن يجازف حماد الراوية بالجواب بأنه الأعشى، فيقول قولاً لم يقل به أحد.



## (بيان في تقديم الشعراء وتفضيلهم من أي وجه يكون)

٢٢- ويزيد الأمر بياناً أننا رأيناهم حين طبقوا<sup>(١)</sup> الشعراء جعلوا امرأ القيس وزهيراً والنابعة والأعشى في طبقة، فأعلموا بذلك أنهم أكفاء ونظراء، وأن فضلاً إن كان لواحد منهم، فليس بالذي يؤنس الباقيين من مدانته<sup>(٢)</sup>، ومن أن يستطيعوا التعلق به والجري في ميدانه، ويمنعهم أن يدعوا لأنفسهم أو يدعى لهم أنهم ساووه في كثير مما قالوه أو دنوا منه، وأنهم جروا إلى غايته أو كادوا، وإذا كان هذا صورة الأمر، كان من العمى التعلق به، ومن الخسار الوقوع في الشبهة بسببه .



٢٣- وطريقة أخرى في ذلك، وتقرير له على ترتيب آخر، وهو أن الفضل يجب والتقديم؛ إما لمعنى غريب يسبق إليه الشاعر فيستخرجه، أو استعارة بعيدة يفتن لها، أو لطريقة في النظم يخترعها، ومعلوم أن الممول<sup>(٣)</sup> في دليل الإعجاز على النظم، ومعلوم كذلك أن ليس الدليل في المجيء بنظم لم يوجد من قبل فقط، بل في ذلك مضموماً إلى أن يبين<sup>(٤)</sup> ذلك «النظم» من سائر ما عرف ويعرف من ضروب «النظم»، وما يعرف أهل العصر من أنفسهم أنهم يستطيعونه، البيئونة<sup>(٥)</sup> التي لا يعرض معها شك لواحد منهم أنه لا يستطيعه، ولا يهندي لكنه<sup>(٦)</sup> أمره، حتى يكونوا في استشعار اليأس من أن يقدروا على مثله، وما يجري مجرى المثل له، على صورة واحدة، وحتى كأن قلوبهم في ذلك قد أفرغت في قالب واحد<sup>(٧)</sup>. وإذا كان الأمر كذلك لم يصح لهم تعلق بشأن امرئ القيس حتى يدعوا أنه سبق إلى نظم بان من كل نظم عرف لمن قبله ولمن كان معه في زمانه، البيئونة التي ذكرناها أمرها.

وهم إذا فعلوا ذلك، ورطوا أنفسهم في أعظم ما يكون من الجهالة، من حيث إنه يفضي<sup>(٨)</sup> بهم إلى أن يدعوا على من كان في زمان النبي ﷺ من الشعراء والبلغاء قاطبة الجهل بمقادير البلاغة، والنقصان في علمها، ولأنفسهم الزيادة عليهم، وأن يكونوا قد استدركوا في نظم امرئ القيس مزية لم تعلمها قريش والعرب قاطبة،

(١) طبقوا الشعراء: جعلوهم طبقات .

(٢) يؤنس الباقيين من مدانته، يأسون من القرب منه وملاحقته .

(٣) الممول: المرجع والأصل .

(٤) يبين: يتميز .

(٥) بيئونة نظم القرآن: فضله وتمييزه عن نظمهم .

(٦) لا يهندي لكنه أمره: حقيقة شأنه .

(٧) أفرغت في قالب واحد: صار رأيهم واحداً لا اختلاف بينهم .

(٨) يفضي بهم: يذهب بهم .



٢٢- ويزيد الأمر وضوحاً وبياناً أنهم حين جعلوا امرأ القيس وزهيراً والنابعة والأعشى في طبقة واحدة، أنهم كانوا أكفاء متماثلين، وإذا كان لأحدهم فضل على الآخرين، لما دعاهم ذلك إلى اليأس من القرب منه والتعلق به حتى يبدّوه أو يساووه أو يدنوا منه.



٢٣- وطريقة أخرى لبيان أن القرآن معجز، وأنهم لم يقدرُوا على معارضته. فإثبات الفضل يكون إما لاختيار معنى غريب أو استعارة بعيدة، أو نظم دقيق، وإن كان معلوماً أن سبب الإعجاز هو النظم، وليس المراد الإتيان بنظم لم يوجد من قبل، بل أن يتميز النظم عن سائر ما عرف عند أهل العصر، ولا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا النظم.

وإذا كان الأمر كذلك فليس لهم في تقديم امرئ القيس شأن حتى يدعوا أنه سبق إلى نظم تميز عن نظم غيره ممن سبقه أو عاصره .

وإذا فعلوا ذلك فقد ورطوا أنفسهم وحكموا عليها بالجهالة، فكيف يكون بين أيديهم شعر منظوم مساوٍ في شرفه لنظم القرآن، ثم لا يحتجّون به على النبي ﷺ الذي أتى بقرآن خارج عن طوق البشر في نظمه وتجاوز قدرتهم.

ومن يسلم بأن شعر امرئ القيس زاد في شرف نظمه على نظم من كان قبله، كما زاد القرآن في فضل نظمه على نظم من كان في عصر النبي ﷺ.



ذلك لما مضى آنفاً<sup>(١)</sup> من أن محالاً أن يكون معهم وبين أيديهم نظم يعرفون من حاله أنه مساو في الشرف نظم القرآن، ثم لا يذكرونه ولا يحتجون به على النبي ﷺ، وهو يخبرهم أن الذي أتى به خارج عن طوق<sup>(٢)</sup> البشر ويتجاوز قواهم.

هذا، ومن يسلّم بأن أمراً القيس زاد في البلاغة وشرف النظم<sup>(٣)</sup> على نظم من كان قبله، ما إذا اعتبر كان في مزية قدر القرآن على نظم من كان في عصر النبي ﷺ؟ أم من أين لهم هذه الدعوى؟ الشيء علموه هم في شعره، بان لهم عند قياسه إلى شعر من كان قبله كأبي دؤاد والأفوه الأودي وغيرهما؟ أم لخبر أتاهاهم؟ فليرونا مكانه، وليس لهم إلى ذلك سبيل<sup>(٤)</sup> بل قد أتى الخبر بما يجهلهم في هذه الدعوى ويكذبهم، وهو الذي تقدم من قول أبي الأسود وتفضيله أبا دؤاد بحضرة أمير المؤمنين علي رضوان الله عليه، وبعد أن قال له: «قل يا أبا الأسود»، أفيكون أن يكونوا قد عرفوا لامرئ القيس المزية التي ذكروها، وكان فضله على من تقدمه الفضل الذي قالوه، ثم يقول أمير المؤمنين لأبي الأسود: «قل» بحضرة العرب وبعقب أن تشاجروا في أشعر الناس، فيؤخره ويقدم أبا دؤاد، ثم لا يسمع نكيراً<sup>(٥)</sup>، كالذي يجب فيمن قال الشيء الظاهر بطلانه، وذهب مذهباً لا مساغ<sup>(٦)</sup> له! وليست تذكر أمثال هذه الزيادة، ويتكلف الجواب عنها، أنها تأخذ موضعاً من قلب ذي لب<sup>(٧)</sup>، ولكن الاحتياط بذكر ما يتوهم أن يستروح إليه الغوي<sup>(٨)</sup>، ويغالط به الجاهل.

وإذا كانت الشبهة في أصل الدين، كانت كالداء الذي يخشى منه على الروح، ويخاف منه على النفس، فلا يستقل قلبه، ولا يتهاون باليسير منه، ولا يتوهم مكان حركة له إلا استقصي<sup>(٩)</sup> النظر فيه، وأعيد الكي<sup>(١٠)</sup> على نواحيه، وكالحيوان ذي السم يعاد الحجر على رأسه، مادام يرى به حس وإن قل.

والله ولي ولي العصمة، والمسئول أن يجعل كل ما نعيد ونبدئ فيه لوجهه، بفضله ومنه.

(٢) طوق البشر: قدرتهم.

(١) مضى آنفاً: سابقاً.

(٤) سبيل: وجهة وطريق.

(٣) النظم: ترتيب الكلام بعضه مع بعض بطريقة مخصوصة.

(٧) ذي لب: ذي عقل.

(٥) نكيراً: دهشة وإنكاراً. (٦) لا مساغ له: لا يجوز له.

(٩) استقصى النظر فيه: نظر إليه من كل ناحية.

(٨) يستروح إليه الغوي: يرضى عنه المعلن في الضلال.

(١٠) الكي: علاج ودواء لكل علة.

من أين هذه الدعوى وما مصدرها؟ أفي شعره ما يميزه عمن سبقه كأبي دؤاد والأفوه الأودي وغيرهما؟ وإذا كان خبر أتاها فليرونا مكانه وموضعه؛ بل الخبر جاء بما يكذبهم، حين سأل أمير المؤمنين عليُّ أبا الأسود بحضرة العرب بعد أن ارتفعت أصواتهم ومشاجراتهم في بيان مَنْ أشعر الناس، فيقدم أبا دؤاد على غيره من الشعراء، ثم لا يسمع نكيراً من أحد، وهم أدري الناس بمضايق الشعر ونظمه.

وإذا كان شبهتهم في القرآن هي شبهة في أصل الدين، كان ذلك كالداء الذي يخشى منه على روح الإنسان، ومن ثم لا يجوز التهاون في أمرها وإن قلت، كالأفعى تضرب على رأسها مادام فيها حس أو حركة.







٢٤- وإذا تعلق زعمهم بمن جاء بعد زمان الرسول ﷺ كالجاحظ وأضرابه، كانوا في ذلك أجهل، ونقض زعمهم أسهل؛ لأن شرط نقض العادة أن تعم الأزمان كلها، وأن يظهر على يد المدعي ما لم يستطع أحد أن يظهره على يديه هو.

وإذا تقدم واحد كالجاحظ على أهل عصره، فلا فضل في ذلك إذا أمعت النظر؛ إذ ليس الأمر بأكثر من أن واحداً زاد في جماعة معدودة، فكان أشهرهم أو أحذقهم في صنعة، وليس ذلك من الإعجاز في شيء؛ إذ إن الإعجاز هو ما يفوق قدرة البشر.

أما الجاحظ وغيره فقد شربوا من ماء غيرهم من السابقين، واستقوا معلوماتهم من الأولين، وبلغوا ما بلغوا من حفظ كلام الأولين، ولولا ذلك لكانوا في عداد العامة، فحاله كحال النحل تفتدي بطيب الأزهار، ثم تقذفها عسلاً جنيّاً حلو المذاق.



□ □ □

(۶) كيف نجاريهم ونحن نحكيهم: أي كيف نوازيهم ونحن نتبعهم . (۷) يضاهيهم: بمائلهم .



٢٥- ومثل ذلك مثل ما جرى بين ابن ميادة وبين عقّال من شعر: يقول ابن ميادة: إن شعراءنا فجّروا ينابيع الكلام، وأصحاب الرواية سباحوا في نهرهم وينابيعهم، وشعرهم كلفة وتملّح .  
فيجيبه عقّال: بأنّ الفضل يرجع للسابقين ولا ينكره أحد، وليس لمخلوق أن يتبجح عليهم.



٢٦- يقول أصحاب البلاغة المشتغلون بها كيف نجاري الأقدمين، ونحن عالة عليهم نحكي أقوالهم ونسير على منوالهم.  
والجاحظ يقول في شأن العرب، ليس لنا إلا أن نتبعهم ونأخذ منهم، ولا يستطيع أرفع الناس بياناً أن يمثّلهم، ويقول مثل أقوالهم في أصالة نحتهم وجودة سبكهم.

فإذا تغافل الرجل وادعى للجاحظ وأمثاله دعوى لم يذكرها الجاحظ لنفسه، أو زعم أنهم ظلموا أنفسهم وهضموا أعمالهم تعصباً للعرب، فأعطوهم أكثر مما ينبغي ووصفوهم بوصف هو أرفع من مكانتهم، لفتحوا بذلك باباً من الجهالة والسخف ليس لنا أن نشغل أنفسنا به فضلاً عن الكلام عليه.



السَّبْك والنَّحْت، وكثرة الماء والروث<sup>(١)</sup>، إلا في اليسير غنى للعاقل وكفاية، اللهم إلا أن يتجاهل متجاهلٌ فيدعي في الجاحظ وأمثاله فضلاً لم يدعوه لأنفسهم، أو يزعم أنهم ضاموا أنفسهم<sup>(٢)</sup> تعصباً للعرب، فتشاهدوا لها بأكثر مما عرفوا، وتواصفوها بمزية وبما لم يعلموا، فيفتح بذلك باباً من الركَاكة<sup>(٣)</sup> والسُّخف لا يُجَاب عن مثله، ولا يُشْتَغَل بالإصغاء إليه، فضلاً عن الكلام عليه.



### (قول الملحدة إن من البلغاء من يقدر على معارضة القرآن وتركوا ذلك خوفاً)

٢٧- واعلم أنه إن خيل إلى قوم من جهال الملحدة<sup>(٤)</sup> أنه كان في المتأخرين من البلغاء كالجاحظ وأشباه الجاحظ، من استطاع معارضة القرآن فترك خوفاً، أو أنهم فعلوا ذلك ثم أخفوه، لم يتصور تخيلهم ذلك حتى يقتحموا<sup>(٥)</sup>، هذه الجهالة التي ذكرتها، أعني أن يزعموا أنهم كانوا عند أنفسهم أفصح وأبلغ من بلغاء قريش وخطبائهم، وأن خطيبهم كان أخطب من قس وسحبان، وشاعرهم أشعر من امرئ القيس، ومن كل شاعر كان في العرب، إلا أنهم صانعوا الناس<sup>(٦)</sup>، فمنعوا أنفسهم الفضيلة ونحلوها<sup>(٧)</sup> العرب، وذاك أن محالاً أن يعتقدوا فيهم، أعني في العرب، ما اعتقده الناس، وفي أنفسهم ما أفصحوا به من القصود<sup>(٨)</sup> عن مداناتهم، وشدة الانحطاط عنهم، ثم أن يستطيعوا ما لم يستطعه العرب، ويكملوا ما لم يكملوا له.

ومن هذا الذي يشك في بطلان دغوى من بلغ بالمصلي غاية، وقد انقطع السابق<sup>(٩)</sup>، وزعم في الناقص الحذق<sup>(١٠)</sup> أنه استقل بشيء عي به<sup>(١١)</sup> المشهود له بالحذق والتقدم؟ هذا ما لا يدور في خلد<sup>(١٢)</sup>، ولا تنعقد له صورة في وهم، فاعرف ذلك.

(١) السبك والنحت والروث، كلها أوصاف للكلام المتلائم الجيد . (٢) ضاموا أنفسهم: هضموها .

(٣) الركَاكة: التهافت والسقوط . (٤) الملحدة: الذين خرجوا عن الدين .

(٥) اقتحم الشيء: دخله عنوة . (٦) صانعوا الناس: مالتوهم وجاملوهم .

(٧) نحلوها العرب: خصوا بها العرب . (٨) القصود عن الشيء: عدم الوصول إليه .

(٩) السابق: المتقدم . (١٠) الحذق: المهارة .

(١١) عي بالشيء: ضعف عنه ولم يحتمله . (١٢) يدور في خلد: يجري في ذهنه .

٢٧- وإذا خيل لبعض الجاهل أنه كان من المتأخرين كالجاحظ وأضرابه من استطاعوا معارضة القرآن لروعة بيانهم، إلا أنهم تركوا ذلك خوفاً، أو عارضوه ثم أخفوه، وكأنهم يزعمون أنه كان بينهم من الناس من هو أفصح وأبلغ من خطباء العرب وشعرائهم المبرزين كأمير القيس، وقسّ بن ساعدة، وسحبان وائل، إلا أنهم تظاهروا بغير ذلك ومنعوا أنفسهم فضيلة التقدم ومنحوها للعرب.

فمن المحال أن يخلصوا بالمرية ويمنعوا أنفسهم عنها لقصورهم، ثم يزعمون أنهم يستطيعون ما لم يستطعه العرب، ويكملوا ما نقص منهم، كفرسين في حلبة السباق أحدهما سابق، والآخر لاحق، فهل يجوز لنا أن نزعم أن لللاحق الأقل كفاءة ميزة وحقاً لا يوجدان في السابق؟!





## فصل في فن آخر من السؤال

٢٨- وهو أن يقولوا: إِنَّا قَدْ عَلِمْنَا مِنْ عَادَاتِ النَّاسِ وَطَبَائِعِهِمْ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ تَوَاتِيهِ<sup>(١)</sup> الْعِبَارَةُ، وَيُطِيعُهُ اللَّفْظُ فِي صِنْفٍ مِنَ الْمَعَانِي، ثُمَّ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مِثْلُ تِلْكَ الْعِبَارَةِ وَذَاكَ اللَّفْظُ فِي صِنْفٍ آخَرَ.

فقد يكون الرجل، كما لَا يَخْفَى، فِي الْمَدِيحِ أَشْعَرَ مِنْهُ فِي الْمَرَاثِي، وَفِي الْغَزَلِ وَاللَّهْوِ وَالصَّيْدِ أَنْفَذَ مِنْهُ فِي الْحَكَمِ وَالْآدَابِ، وَتَرَاهُ يَسْتَطِيعُ فِي الْأَوْصَافِ وَالتَّشْبِيهَاتِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ مِثْلُهُ فِي سَائِرِ<sup>(٢)</sup> الْمَعَانِي، وَتَرَى الْكَاتِبَ وَهُوَ فِي الْإِخْوَانِيَّاتِ أْبْلَغَ مِنْهُ فِي السُّلْطَانِيَّاتِ، وَبِالْعَكْسِ. هَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ ظَاهِرٌ لَا يَشْتَبَهُ<sup>(٣)</sup>. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَلَعَلَّ الْعَجْزَ الَّذِي ظَهَرَ فِيهِمْ عَنْ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ، لَمْ يَظْهَرَ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ مِثْلَ ذَلِكَ النَّظْمِ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ فِي مِثْلِ مَعَانِي الْقُرْآنِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا السُّؤَالَ يَجِيءُ لَهُمْ عَلَى وَجْهِ آخَرَ، وَفِي صُورَةٍ أُخْرَى، وَأَنَا أَسْتَقْصِيهِ<sup>(٤)</sup>، حَتَّى إِذَا وَقَعَ الْجَوَابُ عَنْهُ وَقَعَ عَنْ جُمْلَتِهِ، وَكَانَ الْحَسْمُ<sup>(٥)</sup> فِي الدَّاءِ كُلِّهِ، وَذَاكَ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّهُ لَا تَصَحُّ الْمَطَالِبَةُ إِلَّا بِمَا يُتَصَوَّرُ وَجُودُهُ، وَمَا يَدْخُلُ فِي حَيْزِ<sup>(٦)</sup> الْمُمْكِنِ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ مِنْ حَالِ الْمَعَانِي أَنَّ الشَّاعِرَ يَسْبِقُ فِي الْكَثِيرِ مِنْهَا إِلَى عِبَارَةٍ يُعْلَمُ ضَرُورَةُ أَنَّهَا لَا يَجِيءُ فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى إِلَّا مَا هُوَ دُونُهَا وَمُنْحَطٌّ عَنْهَا، حَتَّى يَقْضَى لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ غَلِبَ عَلَيْهِ وَاسْتَبَدَّ بِهِ، كَمَا قَضَى الْجَا حِظُّ لِبَشَارٍ فِي قَوْلِهِ:

كَأَنَّ مِثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ<sup>(٧)</sup>

فَإِنَّهُ أَنْشَدَ هَذَا الْبَيْتَ مَعَ نَظَائِرِهِ<sup>(٨)</sup>، ثُمَّ قَالَ: «وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ غَلِبَ عَلَيْهِ بِشَارٌ، كَمَا غَلِبَ عَنْتَرَةٌ عَلَى قَوْلِهِ:

(٢) سائر المعاني: بقية المعاني.

(٤) استقصيه: أحيط به علماً.

(٦) في حيز الممكن: في نطاقه.

(٧) مِثَارُ النَّقْعِ: الغبار الذي تثيره سنابك الخيل في المعركة، تهاوى: تتساقط.

(٨) نظائره: أمثاله.

(١) تواتيه العبارة: تكون في متناول يديه.

(٣) لا يشته: لا يغمض ولا يخفى على أحد.

(٥) الحسم: القطع.

٢٨- يقولون: إن من عادة الناس أن الواحد منهم تواتيه العبارة وتسلس له في فن، فإذا دخل في فن آخر استعصت عليه وحرنت معه، فقد يكون متفوقاً في الغزل، فإذا دخل في المراثي لم يبلغ فيه المقدار الذي بلغه في الغزل. وقد يكون سباقاً في الفخر، وهو أشعر منه في المراثي وهكذا.

وكذلك الأمر في الكتابة لا تختلف عن الشعر، فقد يكون في الاجتماعيات أفضل منه في الرسميات إلى غير ذلك، فإذا ظهر منهم عجز عن معارضة القرآن، فليس لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم؛ بل لأنهم لا يستطيعونه في مثل معاني القرآن.

أو يقولون: إنه لا يصح المطالبة إلا بما يدخل في حيز الممكن، فإذا سبق شاعر إلى معنى من المعاني وارتفع فيه، بحيث لا يمكن لشاعر آخر الوصول إلى معناه، فيقضي للأول بأنه غلب على هذا المعنى واستبدّ به، كبيت بشار مثلاً:

كَأَنَّ مُثَارَ النِّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا      وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

فهذا المعنى غلب عليه بشار واحتكره لنفسه حتى لم يستطع أحد من الشعراء أن يقترب منه.





وقالوا ذلك أيضاً في بيتي عترة وهو يصف الذباب: «لو أن امرأ القيس عرض لمذهب عترة في هذا لافتضح» ليس ذلك لأن بشاراً وعترة قد أوتيا في علم النظم ما لم يؤت غيرهما، بل هما كشيء خفي في مكان فعر عليه إنسان فأخذه، وشبه ذلك بالصدفة التي ليس بها إلا جوهرة واحدة، فعمد إليها رجل وأخذها، استحال على رجل آخر أن يأخذ منها جوهرة ثانية، إذ لا يوجد سوى واحدة التي أخذها الأول، ثم أصبحت الصدفة فارغة، وهذا شأن الشعر الذي لا يخفى على أحد.

ويذكر عبد القاهر دليلاً على قوله وصوابه أبياتاً من الشعر للقطامي، وابن حازم الباهلي، وعبد الرحمن بن حسان، والبحثري، ويعقب على ذلك فيقول: إن معاني هذه الأبيات لا يوجد مثلها في شعر الشعراء؛ لأن الأمر فيها قد بلغ غايته ولم يبق لطالب مطلب فوق ذلك أو مدانته .



## (ما جاء على هذا الوجه من الكلام المنثور)

٢٩ - وكذلك السبيل في المنثور من الكلام، فإنك تجد فيه متى شئت فصولاً تعلم أن لن يُستطاع في معانيها مثلها، فمما لا يخفى أنه كذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»، وقول الحسن رحمه الله عليه:

«مَا رَأَيْتُ يَقِينًا لَاشِكَّ فِيهِ أَشْبَهَ بِشَكِّ لَا يَقِينُ فِيهِ مِنَ الْمَوْتِ»، ولن تعد ذلك إذا تأملت كلام البلغاء ونظرت في الرسائل.

ومن أخص شيء بأن يطلب ذلك فيه، الكتبُ المبتدأةُ الموضوعات في العلوم المستخرجة، فإننا نجد أربابها<sup>(١)</sup> قد سبقوا في فصول منها إلى ضرب من اللفظ والنظم، أعيا<sup>(٢)</sup> من بعدهم أن يطلبوا مثله، أو يجيئوا بشبيه له، فجعلوا لا يزيدون على أن يحفظوا تلك الفصول على وجوهها، ويؤدوا ألفاظهم فيها على نظامها وكما هي.

وذلك ما كان مثل قول سيويه في أول الكتاب<sup>(٣)</sup>:

«وَأَمَّا الْفِعْلُ فَأُمْلَةٌ أُخِذَتْ مِنْ لَفْظِ أَخْدَاتِ الْأَسْمَاءِ، وَبُنِيَتْ لَمَّا مَضَى، وَمَا يَكُونُ وَلَمْ يَقَعْ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ لَمْ يَنْقَطِعْ».

- لا نعلم أحداً أتى في معنى هذا الكلام بما يوازنه، أو يدانيه، أو يقع قريباً منه، ولا يقع في الوهم أيضاً أن ذلك يُستطاع، أفلا ترى أنه إنما جاء في معناه قولهم:

«وَالْفِعْلُ يَنْقَسِمُ بِأَقْسَامِ الزَّمَانِ: مَاضٍ وَحَاضِرٌ وَمُسْتَقْبَلٌ»، وليس يخفى ضعف هذا في جنبه وقصوره عنه، ومثله قوله:

«كَأَنَّهُمْ يُقَدِّمُونَ الَّذِي بَيَّانُهُ أَهَمُّ لَهُمْ، وَهُمْ بِشَأْنِهِ أَغْنَى، وَإِنْ كَانَا جَمِيعًا يَهْمَانَهُمْ وَيَعْنِيَانَهُمْ».



(٢) أعيا من بعدهم: أجهدهم.

(١) أربابها: أصحابها.

(٣) الكتاب: كتاب سيويه بهذا الاسم.

٢٩- وما يجري في الشعر من قول لا يدانيه في معناه شاعر آخر، يجري مثله في النثر، كقول عليّ رضي الله عنه : «قيمة كل امرئ ما يحسنه»، وغير ذلك من النثر الذي تفرد بمعناه وامتاز على غيره .

وأيضاً العلوم المبتدأة المتسبطة بقريحة الذهن ولم يسبق في استخراجها أحد، حتى إنها أعتت من حاول أن يجيء بمثلها في دقة التعبير عنها، كقول سيبويه في تقسيم الفعل إلى ما مضى، وما يكون، وما لم يقع، وما هو كائن، وكقوله في التقديم:

كانهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعاً يهملانهم ويعنيانهم.





٣٠- وإذا كان الأمر كذلك لم يمتنع أن يكون سبيلُ لفظ القرآن ونظمه هذا السبيل، وأن يكون عجزهم عن أن يأتوا في طريق العجز عما ذكرنا ومثلنا، فهذا جملة ما يجيء لهم في هذا الضرب من التعلق قد استوفيته، وإذا قد عرفتَه، فاسمع الجواب عنه، فإنه يسقطه عنك دفعةً، ويخسبه عنك حسماً<sup>(١)</sup>.



### (تفصيل القول في معنى التحدي)

٣١- واعلم أنهم في هذا كرام قد أضلَّ الهدف، وبأن قد زال عن القاعدة، وذلك أنه سؤال لا يتجه حتى يُقدَّر أن التحدي كان إلى أن يعبروا عن معاني القرآن أنفسهم وبأغنيائها بلفظ يشبه لفظه، ونظم يوازي نظمَه، وهذا تقدير باطل، فإن التحدي كان إلى أن يجيئوا في أي معنى شاءوا من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مَفْتُرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، أي مثله في النظم، وليكن المعنى مفترى كما قلتم، فلا إلى المعنى دُعيتُم، ولكن إلى النظم، وإذا كان كذلك، كان بينا أنه بناء على غير أساس، ورمي من غير مرمى؛ لأنه قياس ما امتنعت فيه المعارضة من جهة وفي شيء مخصوص، على ما امتنعت معارضته من الجهات كلها وفي الأشياء أجمعها.

فلو كان إذ سبق الخليل وسيبويه في معاني النحو إلى ما سبقا إليه من اللفظ والنظم، لم يسبق الجاحظ في معانيه التي وضع كتبه لها إلى ما يوازي ذلك ويضاهيه، أو كان بشار إذ سبق في معناه إلى ما سبق إليه، لم يوجد مثل نظم فيه شاعر في شيء من المعاني - لكان له في ذلك متعلق، فأما وليس من نظم يقال: «إنه لم يسبق إليه» في معنى، إلا ويوجد أمثاله أو خير منه في معانٍ آخر، فمن أشدَّ المحال وأبينه الاعتراض به.

واعلم أنا لو سلمنا لهم الذي ظنوه على بطلانه، من أن التحدي كان إلى أن يعبر عن أنفس معاني القرآن بما يشبه لفظه ونظمه، لم نعدم الحجاج معهم، وأن يكون لنا عليهم كلام في الذي تعلقوا به، ودفع لهم عنه، إلا أن العلماء آثروا أن يكون الجواب

(١) يخسبه حسماً - مع الكلام - نهائياً

٣٠- وإذا كان الأمر كذلك في الشعر وفي النثر كان مثله في القرآن، فعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله، كعجزهم عن أبيات معروفة في الشعر كالتى مثلنا بها لبشار وغيره، وفي النثر كما مثلنا بقول علي رضي الله عنه وغيره. وإذا قد عرفت ما قالوه في هذا الزعم، وأدركت الجواب عنه الذي يُسقط ادعاءهم ويُفحم زعمهم.



٣١- قدّر المعارضون أن التحدي كان بأن يعبروا عن معاني القرآن بأعيانها، ويلفظ يشبه لفظه، وهذا باطل؛ لأن التحدي لم يكن في الإتيان بمعنى في مثل معنى القرآن، ولكن كان بالإتيان بنظم مثل نظمه، في أي معنى شاءوا. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ أي مفترى في أي معنى تريدون، فكان شأنهم شأن من يرمي بسهم فيضل الهدف، أو يبنى على غير أساس، وقاسوا الشيء الذي يمتنع بنظمه، على الشيء الذي يمتنع بمعناه، فكان قياسهم على بطلان وفساد. وإذا حكمنا للخليل وسيبويه في معاني النحو بالسبق في لفظه ونظمه، حكمنا حيثئذ بأن الجاحظ لم يسبق في معانيه إلى ما يضاهاه ما جاء به الخليل وسيبويه. وكذلك إذا كان بشار قد أتى في بيته المشهور عن المعركة بالمعنى الذي لم يسبق إليه، وكان غيره من الشعراء لا يدانوه في شيء من معناه، لكان لهم العذر في ذلك، أما وأن الأمر لا يتعلق بالمعنى، وإنما يتعلق بالنظم وأنه لم يسبق إليه في معنى، إلا ويوجد مثل نظمه أو خير منه، في معناه أو في معانٍ أخرى، فهذا من أشد المحال وأبعده عن الاعتراض.

ولو سلمنا جدلاً أن التحدي وقع في معاني القرآن بما يشبهه في اللفظ والنظم، لما عدنا الحجة عليهم، ولكن العلماء فضلوا أن يكون التحدي على الوجه الذي ذكرنا بأن يأتوا بأي معنى، ولكن في نظم القرآن تسهيلاً عليهم، حتى نحسم الشبهة ونقطع الحجة، فمن ضعف الرأي أن يطول علاج المريض ومعك الدواء الذي يشفيه.





٣٢- ونعود إلى ما قالوه مرة أخرى: إن الرجل قد يكون في نوع أشعر، وفي اللفظ والنظم أجود منه في نوع آخر.

وإذا تأملنا ذلك وجدنا أن الشاعر قد أتى في معاني ذلك الفن ما لم يأت به غيره، فإذا قالوا: فلان أنسب الناس أو أمدحهم أو أهجأهم، بمعنى أنه وجد في معاني الغزل من الوجد ما لم يجده غيره، واهتدى في معاني المدح والهجاء ما لم يهتد إليه نظراؤه. فهم يريدون المعنى ويستحيل أن يكون مرادهم النظم، إذ لو كان كذلك، أي أنه أنسب أو أمدح أو أهجى؛ لما كان من صفات اللفظ والنظم.

وقول جرير:

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ

لا يشك أحد بأنه أمدح بيت قالته العرب ليس لمعناه؛ بل لما فيه من جمال لفظ ونظم.



٣٣- فإن قالوا: هم، وإن كانوا قد أرادوا المعنى في قولهم: «هذا أمدح، وذاك أهجى، وهذا أنسب، وذاك أوصف» فإنه لن تتسع المعاني حتى تتسع الألفاظ، ولن تقع مواقعها المؤثرة حتى يحسن النظم، وإذا كان كذلك، فموضعنا منه بحاله، ثم ليس بمنكر ولا مجهول أن يكون لفظ الشاعر ونظمه إذا تعاطى المدح، أحسن وأفضل منهما إذا هو هجاء أو نسب.

قيل: إنا ندع النزاع في هذا ونسلمه لكم، فأخبرونا عن معاني القرآن، أهي صنف واحد أم أصناف؟ فإن قلتم: «صنف واحد»، تجاهلتم، فقد علمنا الحجج والبراهين، والحكم والآداب، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والوصف والتشبيه والأمثال، وذكر الأمم والقرون واقتصاص<sup>(١)</sup> أحوالهم، والنبأ<sup>(٢)</sup> عما جرى بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام وما لا يخصى ولا يعد. وإن قلتم: «هي أصناف»، كما لا بد منه.

قيل لكم: فقد كان ينبغي لشعراء العرب وبلغائها أن يعتمد كل منهم إلى الصنف الذي تنفذ قريحته فيه فيعارضه، وأن يجعلوا الأمر في ذلك قسمة<sup>(٣)</sup> بينهم. وفي هذا كفاية لمن عقل.



٣٤- وأما قولهم: «إنه قد يكون أن يسبق الشاعر في المعنى إلى ضرب من اللفظ والنظم، يعلم أنه لا يجيء في ذلك المعنى أبداً إلى ما هو منقط عنه»<sup>(٤)</sup> - فإنه ينبغي أن يقال لهم: قد سلمنا أن الأمر كما قلتم وعلمتم، أفعلتم شاعراً أو غير شاعر عمد إلى ما لا يخصى كثرة من المعاني، فتأتى له في جميعها لفظ أو نظم أعيا<sup>(٥)</sup> الناس أن يستطيعوا مثله، أو يجدوه لمن تقدمهم؟ أم ذلك شيء يتفق للشاعر، من كل مئة بيت بقولها، في بيت؟ ولعل غير الشاعر على قياس<sup>(٦)</sup> ذلك. وإذا كان لا بد من الاعتراف بالثاني من الأمرين، وهو أن لا يكون إلا نادراً وفي القليل، فقد ثبت إعجاز القرآن بنفس ما راموا به دفعه<sup>(٧)</sup>، من حيث كان النظم الذي لا يقدر على مثله قد جاء منه فيما لا يخصى كثرة من المعاني.

(١) اقتصاص أحوالهم: تتبعها.

(٢) قسمة بينهم: يقتسمونه فيما بينهم.

(٣) أعيا الناس: أجهدهم.

(٤) راموا دفعه: قصدوا تنقيصه.

(٥) النبأ: الخبر إذا كان هاماً.

(٦) منقط عنه: أقل منه.

(٧) قاس الشيء على غيره: قدره على مثاله.

٣٣- إن قالوا: هم وإن أرادوا المعنى في قولهم: «هذا أنسب أو أمدح وذاك أوصف أو أهجى» إلا أن المعاني لا تتكشف إلا باللفظ، ولا تؤثر إلا بالنظم، فالأمر لا يخرج عما قلناه من أن يكون الإعجاز بالنظم واللفظ.

ومن المعلوم أن الشاعر قد يظهر فضله في نوع من الشعر دون نوع آخر، فقد يكون مبرزاً في الهجاء ساقطاً في المدح وهكذا، أو عالياً في الغزل منحدرًا في الفخر.

قلنا: أخبرونا عن معاني القرآن أهي صنف واحد أم أصناف متعددة، إن كانت صنفًا واحدًا، كذبت وتجاهلتم الواقع؛ فالقرآن أصناف كثيرة: فيه الحكمة والموعظة، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والتشبيه والتمثيل، وغير ذلك مما يجده قارئ القرآن أو من يستمع إليه.

وإن كان القرآن أصنافًا متعددة، فلماذا لا تعمدون إلى بلغاتكم في كل من بدّ في فن من الفنون، وتجعلون الأمر قسمة بينهم حتى يعارضوا القرآن بمثل نظمه، ولكنهم عجزوا جميعًا عن ذلك مما يؤكد إعجاز القرآن، وعدم مجاراة بلغاتكم لأسلوبه ونظمه.



٣٤- وإذا كان الشاعر يلجأ في شعره إلى معنى لم يصل إليه أحد قبله ولم يدانيه أحد في لفظه ونظمه، أيكون ذلك في جميع قصائده، وفي كل بيت من أبياته الشعرية أم أن رفعته تكون في بيت من مائة بيت، أو في قصيدة من مئات القصائد؟ فلا بد من الاعتراف بأن ذلك يكون في النادر والقليل من شعره.

أما إعجاز القرآن فقد جاء في كل سورة؛ بل في جميع آياته، وليس في سورة دون سورة، ولا في آية خلاف آية، مما يجعلكم تسلمون بإعجاز القرآن كله دفعة واحدة.





(۵) اذکی ح۔

٣٥- وهكذا القول في الثر، تحصى كثيراً من الفقرات، ثم لا تجد إلا واحدة تتبوأ المنزلة السامية كمن يعثر على جوهرة يتيمة بين ركام من الأتربة.

ونحن نسلم لهم بهذا القول مع التسليم بظنهم أن التحدي إنما وقع في أنفس معاني القرآن.

ولكن لماذا نركب الصعب ونحيد عن الطريق الواضح: وهو أن التحدي إنما كان في أي معنى يشاءون، ولكن بلفظ ونظم مماثل للقرآن، وليس بالإتيان بأنفس المعاني.



٣٦- ومما يجعل أمر التحدي بأنفس معاني القرآن مستحيلاً وغير وارد، أن العرب كانت تعرف المعارضة وشروطها، ولو كان التحدي بنفس معنى القرآن لحق لهم أن يطلبوا من الرسول ﷺ تنحية هذا الشرط، وقالوا: دع عنا هذا الشرط، ثم اطلب منا فنريك من أقوال السابقين واللاحقين ما يوازي نظم القرآن الذي تدعي إعجازه، ولنا في ذلك فضل وشرف يضاهيه ولا يقل عنه.

والحمد لله والصلاة على رسوله محمد وآله أجمعين.







## فصل

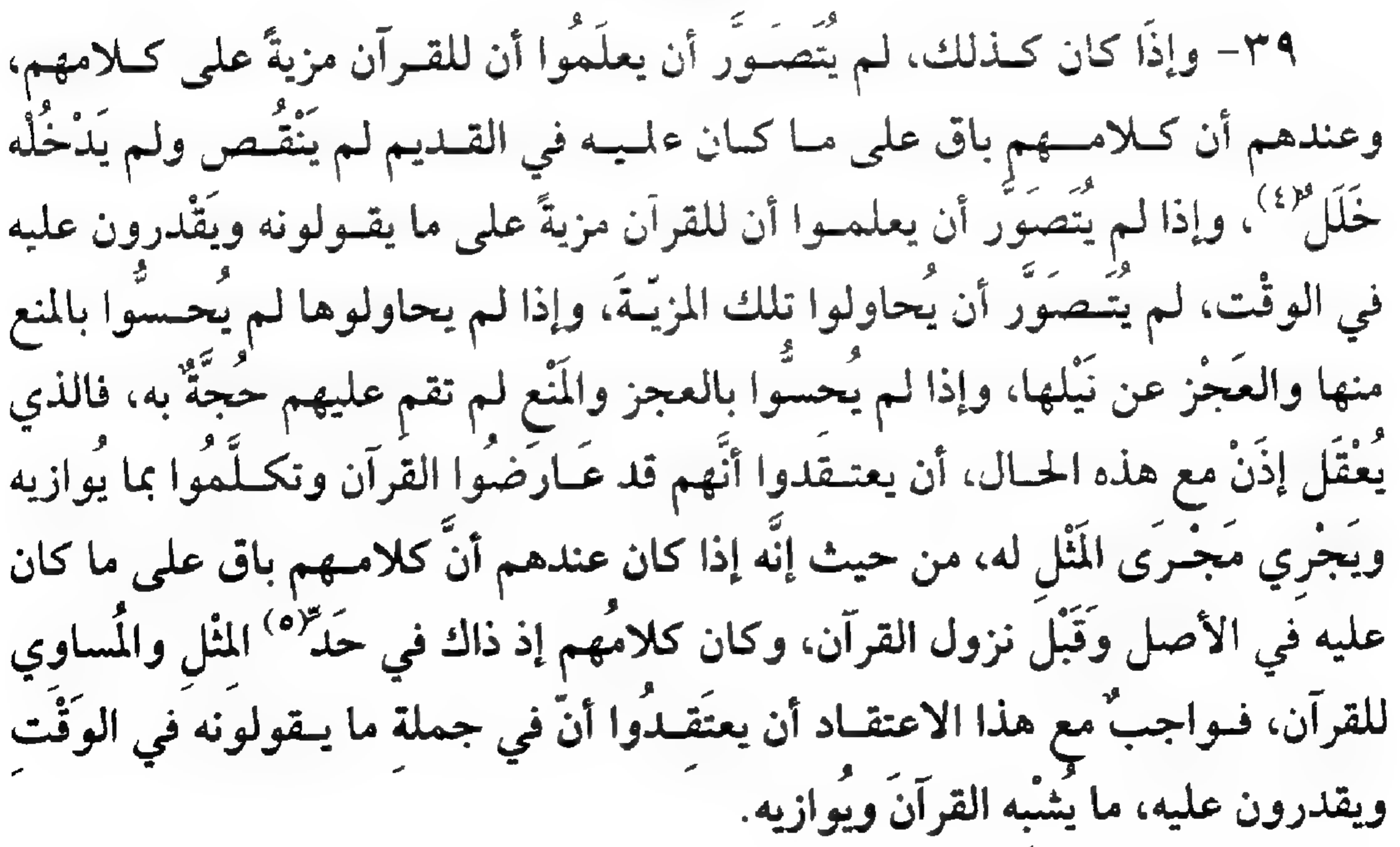
### القول بالصرفة

٣٧- إن الذين قالوا بالصرفة بنوا كلامهم على توهم أن إعجاز القرآن يكون في التعبير عن أنفس المعاني القرآنية بلفظها ونظمها، وليس مطلق معانٍ يأتون بها غير مقيدة بالمعاني التي تحدث عنها القرآن.

ويترتب على هذا القول بالصرفة أن يكون العرب قد تضاءلت بلاغتهم وضعف بيانهم في زمن الرسول ﷺ عن بلاغة العرب وروعة بيانهم في الجاهلية، وأن تكون أشعارهم وخطبهم وكل كلام قالوه بعد أن أوحى إلى النبي قاصر عما قيل قبل مبعثه، وأضاف عليهم ما اتسع على من سبقهم، وأن يكون قول الرسول ﷺ لحسان بن ثابت: «قل وروح القدس معك» مشكوكاً في صحته؛ لأنه لا يطلب العون لرجل قد عدم ما كان متوافراً عند قومه الأولين، وقصر عنهم قصوراً شديداً.



قيل لهم: فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَلَمْ تَقُمْ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ؛ لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ لَا يَكُونُوا قَدْ عَدَمُوا شَيْئًا مِنَ الْفَصَاحَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْرِفُونَهَا لِأَنفُسِهِمْ قَبْلَ التَّحَدِّيِّ بِالْقُرْآنِ وَالِدَعَاءِ إِلَى مُعَارَضَتِهِ، وَبَيْنَ أَنْ يَكُونُوا قَدْ عَدَمُوا ذَاكَ، ثُمَّ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مُمَكِّنًا قَبْلَ أَنْ تُحَدِّثُوا. وَلَا يَكُونُ مَنَعٌ حَتَّى يُرَامَ الْمُنَوَّعُ<sup>(١)</sup> وَلَا يَتَّصَرُّ أَنْ يَرُومَ الْإِنْسَانُ الشَّيْءَ وَلَا يَعْلَمُهُ، وَيَقْصِدُ فِي قَوْلٍ لَهُ وَفَعَلَ إِلَى أَنْ يَجِيءَ بِهِ عَلَى وَصْفٍ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ الْوَصْفَ وَلَا يَتَّصَرُّ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَإِذَا جَعَلْنَاهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ كَلَامَهُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ بِهِ الْيَوْمَ قَاصِرٌ عَنِ الَّذِي تَكَلَّمُوا بِهِ أَمْسَ، وَأَنَّ قَدْ امْتَنَعَ عَلَيْهِمْ فِي النَّظْمِ شَيْءٌ كَانَ يُوَاتِيهِمْ<sup>(٢)</sup>، وَسَلَبُوا مِنْهُ مَعْنًى قَدْ كَانَ لَهُمْ حَاصِلًا - اسْتَحَالَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ نَظْمَ الْقُرْآنِ فَضْلًا عَلَى كَلَامِهِمُ الَّذِي يُسْمَعُ مِنْهُمْ، وَعَلَى النَّظْمِ الْوَاهِنِ الْبَاقِي لَهُمْ<sup>(٣)</sup>. ذَاكَ لِأَنَّ عُدْرَ الْقَائِلِ بِالصَّرْفَةِ، أَنَّ كَلَامَهُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَدِّثُوا قَدْ كَانَ مِثْلَ نَظْمِ الْقُرْآنِ، وَمُؤَاوِيًا لَهُ، وَفِي مَبْلَغِهِ مِنَ الْفَصَاحَةِ .



(۲) یو ائیہم: کان طوعہم وقادرین علیہ .

(۴) خلل: فساد .

(٥) في حد المثل: في نطاقه وحدوده .

٣٨- فإن قالوا: إن فصاحة العرب قد نقصت دون شعور منهم. نقول: إن كان الأمر كما زعمتم لم تقم عليكم الحجة، ولا فرق بين ألا يتصفوا بالفصاحة التي كانوا يعرفونها في أنفسهم، وبين أن تكون لديهم الفصاحة ثم سلبت عنهم دون أن يعلموا ذلك؛ لأنهم كما يزعمون كانوا قادرين أن يأتوا بمثل القرآن في لفظه ونظمه قبل التحدي؛ إذ لا يتصور أن يقصد المرء في قول أو فعل، أو يأتي بوصف لا يعرفه ولا يتصوره في حال من الأحوال.

وإذا كان كلامهم الذي يتحدثون به اليوم قاصراً عما كانوا يتحدثون به بالأمس، وامتنع عليهم النظم الذي كان سهلاً عليهم يواتيهم حيثما أرادوا، استحال عليهم أن يعرفوا أن لنظم القرآن فضلاً على كلامهم الذي يتفوهون به، فعذر القائلين بالصرف أن كلامهم كان مثل نظم القرآن بلاغة ونظماً، ولكن قبل أن يتحدثاهم الرسول ﷺ بالقرآن.

ومن ثم كان قولهم بالصرفة، أي أن الله صرفهم عن الإتيان بمثل نظم القرآن، وإن كانوا قادرين على أن يأتوا بمثله.



٣٩- وإذا قالوا: إن إعجاز القرآن كان بالصرفة، لم يتصور منهم أن يكون للقرآن ميزة على كلامهم، وكلامهم في زمن الرسول ﷺ لم ينقص عن كلامهم قبله، وإذا لم يحسوا بالعجز والمنع لم تقم عليهم الحجة.

فالذي يعقل والحالة هكذا أن يعتقدوا أنهم عارضوا القرآن وأتوا بمثله وما يجري مجراه وأن يعتقدوا في جملة ما يقولون ما يشبه القرآن ويوازيه بلاغة ونظماً.





٤٠ - واعلم أنه يلزمهم أن يقضوا<sup>(١)</sup> في النبي بما قضوا في العرب، من دخول النقص على فصاحتهم، وتراجع الحال بهم في البيان، وأن تكون النبوة قد أوجبت أن يُمنع شطراً<sup>(٢)</sup> من بيانه، وكثيراً مما عرّف له قبلها من شرف اللفظ وحسن النظم، ذاك لأنهم إذا لم يقولوا ذلك، حصل منه أن يكون عليه السلام قد تلاّ عليهم: ﴿لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾<sup>(٣)</sup> [الإسراء: ٨٨] في حال هو يستطيع فيها أن يجيء بمثل القرآن ويقدر عليه، ويتكلم ببعض ما يوازيه في شرف اللفظ وعلو النظم، اللهم إلا أن يقتحموا<sup>(٤)</sup> جهالة أخرى، فيزعموا أنه عليه السلام قد كان في الأصل دونهم في الفصاحة، وأن الفضل والمزية التي بها كان كلامهم قبل نزول القرآن في مثل لفظه ونظمه، قد كان لبغاء العرب دون النبي، وإذا قالوا ذلك، كانوا قد خرجوا من قبيح القول إلى مثله، فلم يشك أحد أنه ﷺ لم يكن منقوصاً في الفصاحة، بل الذي أتت به الأخبار أنه ﷺ كان أفصح العرب.



٤١ - ومما يلزمهم على أصل المقالة أنه كان ينبغي لهم - لو أن العرب كانت منعت منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها - أن يعرفوا ذلك من أنفسهم، كما قدمت، ولو عرفوه لكان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك، ولكانوا قد قالوا للنبي ﷺ: «إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئنا به، ولكنك قد سحرتنا، واحتلت<sup>(٥)</sup> في شيء حال بيننا وبينه»، فقد نسبوه إلى السحر في كثير من الأمور كما لا يخفى، وكان أقل ما يجب في ذلك أن يتذكروه فيما بينهم، ويشكوه البعض إلى البعض، ويقولوا: «ما لنا قد نقصنا في قرائحنا، وقد حدث كلول<sup>(٦)</sup> في أذهاننا»، ففي أن لم يرو ولم يذكر أنه كان منهم قول في هذا المعنى، لا ما قل ولا ما كثر، دليل على أنه قول فاسد، ورأى ليس من آراء ذوي التحصيل<sup>(٧)</sup>.

(۱) یقضوا: یحکموا.

(٢) الشطر: نصف الشيء، وقد يستعمل في الجزء منه .

(۳) ظہیراً: معیناً .

(٤) يفتحوا: يدخلوا قسراً.

(۵) احتال: استعمال مهارتہ لیصل الی مرادہ .

(۶) کلول: کلل وضعف .

(٧) ذوى التحصيل: العقل والإدراك .

٤٠ - وإذا قالوا: إن فصاحتهم في زمن النبي ﷺ قد نقصت عما كانت عليه قبل مبعثه فقد وجب عليهم أن يقضوا في النبي بما قضوا به على أنفسهم من نقصان الفصاحة، وأنه منع من شرف اللفظ وحسن النظم كما منعوا، وإذا لم يقضوا بذلك لكان قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وهو في حال من الفصاحة يستطيع أن يجيء بمثل القرآن في شرف اللفظ ودقة النظم.

اللهم إلا إذا زعموا أن الرسول عليه السلام كان أقل منهم فصاحة، وهذا من قبيح القول؛ إذ الثابت أنه كان أفصح الناس لساناً وأقواهم بياناً.



٤١ - ولو أنهم من الفصاحة التي كانوا عليها قبل زمن النبي ﷺ لكان ينبغي أن يعرفوا ذلك في أنفسهم، ولو عرفوا لتحديثوا به وتحدث الناس عنهم، ولو كان ذلك حقيقة لقالوا للنبي عليه السلام: كنا نستطيع أن نأتي بمثل الذي جئت به، ولكنك سحرتنا وحلت بيننا وبين ذلك.

ولكنهم يذكروا ذلك ولم يرووه، لا بما قل ولا بما كثر، مما يدل على فساد قولهم بالصرف.



ثُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْعُرْفِ وَلَا فِي الْمَعْقُولِ أَنْ يُقَالَ: «لَوْ تَعَاضَدْتُمْ»<sup>(٦)</sup> واجتمعتم جميعكم لم تقدرُوا عليه، في شيء قد كان الواحدُ منهم يَقْدِرُ على مثله، ويسهل عليه ويستقلُّ به، ثم يمنعون منه - وإنما يقال ذلك حيث يُراد أن يُقال: «إنكم لم تستطيعوا مثله قطُّ، ولا تستطيعونه البتَّة»<sup>(٧)</sup> وعلى وجه من الوجوه، حتى إنكم لو استتضفتُم إلى قُوَاكم وقُدْرَكم التي لكم قُوى وقُدْرًا»<sup>(٨)</sup>، وقد استمددْتُم من غيركم، لم تستطيعوه أيضًا» من حيث إنه لا معنى للمعاضدة والمُظافرة والمعاونة<sup>(٩)</sup>، إِلَّا أَنْ تَضُمَّ قُدْرَتُكَ إِلَى قُدْرَةِ صَاحِبِكَ حَتَّى يَخْصُلَ بِاجْتِمَاعِ قُدْرَتِكُمَا مَا لَمْ يَكُنْ يَخْصُلُ (لأحدكما منفردًا) .

فقد بان إذن أن لا مَسَاغَ لحمل الآية على ما ذهبوا إليه، وأن لا مُحْتَمَلَ فيها لذلك على وجه من الوجوه، وظَهَرَ به وسائر ما تقدَّم أنَّ القولَ بالصَّرْفَةِ، ولا سيما على هذا الوجه، قولٌ في غاية البُعْدِ والتهافتِ<sup>(١٠)</sup>، وأنه من جنس ما لا يُعْذَرُ العاقل في اعتقاده، ولم أقُلْ: «ولا سيما على هذا الوجه»<sup>(١١)</sup>، وأنا أعني أن للقول بها على الوجه الأول مَسَاغًا<sup>(١٢)</sup> في الصحة، ولكنني أردت أن فساده كأنه أظهر، والشناعة عليه أكثر، وإلا فما هما، إن أردتُ البُطلانَ، إلا سواءٌ.

(۲) احتشادتم له: اجتماعهم.

(٤) ذوي الأيد: أصحاب القوة .

(۶) تعاضدتم: ساند بعضکم بعضاً .

(٨) قُدْرًا: قدرة .

(١٠) التهافت: البطلان والسقوط .

(۱۲) مَسَاغًا: طَرِيقًا.



٤٢- وفي سياق قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ ما يدل على فساد قولهم بالصرفه؛ لأنه إذا منع المرء من شيء قد اعتاد على فعله لا يقال له: إني قد جئتكم بما لا تقدرُونَ على مثله، ولو كنتم جميعاً بما فيكم إنسكم وجنكم، ولكن يقول: إني قد جئتكم بكلام أحيل بينكم وبين الإتيان بمثله، وأمنعكم عن فعل نظيره، وإن كنتم قبل ذلك تستطيعونه.

وليس من المنطق أن يقول لهم: لو اجتمعتم كلكم على الإتيان بمثله لما استطعتم، في شيء كانوا يقدرُونَ عليه ويسهل لديهم، وإنما يقال في مثل هذه الأمور: أتيتكم بشيء، لا تستطيعون أن تأتوا بمثله قط، ولو أضفتم إلى قواكم قوى أخرى، إذ لا معنى للمساندة والمؤازرة.

فالآية - إذن - لا تحمل على ما ذهبوا إليه من قولهم بالصرفه لما في ذلك من التهافت والبعد، والبطلان والفساد.



فَإِنَّ عَلَى فساد ذلك أدلة منها قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ {هود: ١٣} ، وذاك أننا نعلم أن المعنى: فأتوا بعشر سور تفترونها أنتم - وإذا كان المعنى على ذلك، فبنا أن ننظر في الافتراء إذا وُصفَ به الكلام، إلى المعنى يرجع أم إلى اللَّفْظ والنظم؟ وقد عَرَفْنَا أَنَّهُ لا يرجعُ إِلَّا إلى المعنى، وإذا لم يرجع إِلَّا إلى المعنى وجب أن يكون المراد: إن كنتم تزعمون أنني قد وضعت القرآن وافتريته، وجئت به من عند نفسي، ثم زعمت أنه وحي من الله، فضعوا أنتم أيضاً عشر سور وافترؤا معانيها كما زعمتم أنني افتريت معاني القرآن، فإذا كان المراد كذلك، كأن تقديرهم أن التحدي كان أن يعمدوا إلى أنفس معاني القرآن فيعبروا عنها بلفظ ونظم يشبه نظمَه ولفظه، خروجاً عن نص التنزيل وتحريفاً له<sup>(١)</sup>.

(٥) حبره تحبیری: افرغ جهدك فی تزیینه وتنمیقه .

٤٣- وما القول إذا كانت الصرفة عندهم أن يأتوا بأنفس المعاني القرآنية بمثل لفظها ونظمها، وما دليل فسادها؟

يدل على فساد ذلك كثير من الأدلة .

منها قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾

{هود: ١٣} أي افتروا معانيها كما زعمتم أنني افتريت معاني القرآن. وهذا واضح من سياق الآية، فإذا قدرتم أن المراد هو أن تأتوا بأنفس معاني القرآن كان ذلك خروجاً عن نص الآية وتحريفاً لها.

ومنها: إن زعمتم ما تقولون لكان ينبغي أن يكون أصل الكلام: إن زعمتم أنني افتريته، فأتوا أنتم في معاني هذا المفترى بما ترون من اللفظ والنظم.

كقولك لمن يزعم أنك سرقت شِعرك وأخذته من فلان أو فلان: إن كنت سرقتُ معاني شِعري فقل أنت في هذه المعاني التي سرقتها مثل الذي قلتُ، وليس هذا بمستساغ.





(٥) الآفة: العلة والداء، والعارض: الشيء يعرض للمرء فيمنعه مما كان قادراً عليه .

٤٤ - ولا يخفى على من عنده علم بأساليب الكلام، فإنه لا يقال لمن يحسن القول ويأتي بالكثير منه، ثم يمنع عنه، لا يقال: إنك لا تقدر أن تأتي بمثل ما كنت تأتي به، ولو استعنت بالإنس ومعهم الجن، وإنما يقال ذلك لمن ابتدأ كلاماً لم يسبق إليه، ولم يوجد مثله أبداً .

وقد جاء عن العرب أخبار كثيرة تعظم من شأن القرآن، وخلعوا عليه من الوصف ما لا مزيد عليه كقولهم: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفلهُ لمغذوق وإن أعلاه لمثمر»، ومحال أن يعظموا القرآن كل هذا التعظيم وهم يرون في كلام العرب ما يوازيه ولا يتعذر عليهم الإتيان بمثله، ولكنهم وجدوا في أنفسهم من العلل ما يدفعهم عنه، وهو قريب منهم وفي متناول أيديهم.

بل ينبغي في مثل هذه الحال أن يقولوا: لا نستطيع أن نأتي بنفس معاني القرآن، ولكن نستطيع أن نأتي بغير معانيه ما شئنا بحيث يوازيه ولا يقصر عنه.



قِيلَ لَهُمْ: أَنْتُمْ الْآنَ كَأَنَّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُحْسِنُوا أَمْرَكُمْ، وَأَنْ تَغَطُّوا عَلَى بَعْضِ الْعَوَارِ<sup>(١١)</sup>، وَأَنْ تَمْلَأُوا<sup>(١٢)</sup> مِنَ الَّذِي تُلْزَمُونَ، وَلَيْسَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ كَبِيرٌ جَدْوَى<sup>(١٣)</sup> إِذَا حَقَّقَ الْأَمْرُ، وَإِنَّمَا هُوَ خَدَاعٌ وَضَرْبٌ مِنَ التَّزْوِيقِ.

(۲) أكبر المكبر: إكبار الكبير .

(۱) **فعل له: تفرغ له واهتم به.**

(٦) فضل الله: فضل المزية.

(٨) اعتاص القول: خفي والتوى وصعب .

(١٠) الخطيب المصقع: المفوه ذو البيان الواضح، ارتج عليه: استغلق عليه الكلام.

(۱۲) تملصوا: تخفّفوا وتهربوا.

(۱۳) کبیر جدوی: عظیم فائدہ۔



٤٥- فـدليل النبوة هو عدم قدرتهم على الإتيان بمثل نظم القرآن، وليس بنظم القرآن نفسه، والتعجب حدث من عدم القدرة على إمكانهم ذلك، وليس لأنهم صرفوا عنه، وهذا من الوضوح بمكان .



٤٦- وإذا استمع شاعر إلى شعر شاعر آخر فاستحسنه، فإنه يرى فيه فضلاً ومزية لم يستطع هو نفسه أن تكون في شعره نفس الميزة، إلا أنه لا ييأس فيجهد نفسه ليصل إلى مثل هذا الشعر الذي سمعه في الجودة والميزة.

وأمر القرآن كذلك، فقد سمعوا ما يبهر، ولكنهم يشوا في أنفسهم أن يأتوا بمثله إذا اجتهدوا، ولكن حيل بينهم وبين هذا الاجتهاد فلم يقدرُوا.

وإذا كنا نعلم أن الشاعر العظيم المبهر ربما صعبت عليه قافية وعيي بها، وأن الخطيب المصقع قد يرتج عليه فلا يفيض بعبارة، فلم يكن ما قلناه في شأن العرب بعيداً عن مسمعك، ويحتمل إمكانهم الإتيان بمثل القرآن إلا أنه قد حدث معهم ما يحدث للشاعر المفلق والخطيب المصقع.



وَأَوَّلُ مَا يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ مَا قُلْتُمْ، أَنَّ الَّذِي عَرَفْنَا مِنْ حَالِ النَّاسِ فِيمَا سَبِيلَهُ مَا ذَكَرْتُمْ، التَّضَجُّرُ<sup>(١)</sup>، والشكوى، وَأَنْ يَقُولُوا: «مَا بَالُنَا؟ وَمَنْ أَيْنَ دُهَيْنَا؟ وَكَيْفَ الصُّورَةُ؟ إِنَّا وَإِنْ كُنَّا نَسْمَعُ قَوْلًا لَهُ فَضْلٌ وَمَزِيَّةٌ عَلَى مَا قُلْنَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ نَعْجَزَ عَنْهُ هَكَذَا حَتَّى لَا نَسْتَطِيعَ فِي مَعَارَضَتِهِ مَا نَرْضَى، فَلَا نَدْرِي أَسُحَرْنَا أَمْ مَاذَا كَانَ؟» - ففِي أَنْ لَمْ يُرَوْ عَنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ عَلَى وَجْهِ مِنَ الْوَجْوهِ، دَلِيلٌ أَنَّ لَا أَصْلَ لِمَا تَوْهَمُوهُ، وَأَنَّهُ تَلْفِيقٌ<sup>(٢)</sup> بَاطِلٌ.

ثُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَادَةِ أَنْ يُذْعَنَ<sup>(٣)</sup> الرَّجُلُ لِحَصْنِهِ، وَيَسْتَكِينَ لَهُ، وَيُلْقِي بِيَدِهِ، وَيَسْكُتَ عَلَى تَقْرِيعِهِ لَهُ بِالْعَجْزِ وَتَرْدِيدِهِ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ، وَقَدَرُ مَا ظَهَرَ مِنَ الْمَزِيَّةِ قَدَرٌ قَدْ يَطْمَعُ الْإِنْسَانُ فِي مِثْلِهِ، وَيَرَى أَنَّهُ يَنَالُهُ إِذَا هُوَ اجْتَهَدَ وَتَعَمَّدَ - بَلِ الْعَادَةُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنْ يَدْفَعَ الْعَجْزَ عَنْ نَفْسِهِ، وَأَنْ يَجْحَدَ الَّذِي عَرَفَ لِمُصَاحِبِهِ مِنَ الْمَزِيَّةِ وَيَتَشَدَّدَ، كَمَا فَعَلَ حَسَّانُ، فَبَدَّعِيَ فِي مَسَاوَاتِهِ، وَأَنَّهُ إِنْ كَانَ جَرَى إِلَى غَايَةِ رَأْيٍ لِنَفْسِهِ بِهَا تَقْدِمًا إِنَّهُ لَيَجْرِي إِلَى مِثْلِهَا، وَأَنْ يَقُولَ: «لَا تَغْلُ وَلَا تُفْرِطُ وَلَا تَشْتَطَّ»<sup>(٤)</sup> فِي دَعْوَاكَ، فَلْتَنْ كُنْتَ قَدْ نَلْتَ بَعْضَ السَّبْقِ، إِنَّكَ لَمْ تُبْعِدِ الْمَدَى<sup>(٥)</sup> بُعْدَ مَنْ لَا يُدَانِي وَلَا يُشَقُّ، فَرَوِيدًا<sup>(٦)</sup>، وَاكْفُفْ مِنْ غُلُوءَاتِكَ<sup>(٧)</sup>.



(١) التضجر: التبرم .

(٢) التلفيق: ضم الشيء إلى آخر، ليستخرجوا منه أمراً.

(٣) أذعن: خضع .

(٤) لا تشتط: لا تسرف .

(٥) المدى: الغاية.

(٦) رويداً: تمهل .

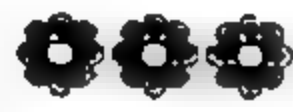
(٧) اكفف من غلوائك: قلل من إسرافك وتكبرك .

نقول لهم: لقد أردتم أن تداروا عجزكم ولجأتم إلى ضرب من الخداع والتزويق.

ويدل على بطلان ما قلتم، لو كان الأمر كما تقولون لمأتم الدنيا شكوى وتضجراً، ولقلتم: إن القرآن وإن كان فيه فضل ومزية، إلا أننا لن نعجز عن معارضته، ولا ندري إن كنا قد سحرنا أم ماذا أصابنا، ولكن لم يرد عنكم شيء من ذلك مما يدل على تلفيق هذه الدعوى وهذا الزعم.

وليس من المعتاد أن يذعن الرجل لخصمه، وهو قادر أن يأتي بمثل دعواه؛ بل العادة أن يدفع العجز عن نفسه، وأن يجحد المزية التي يتشدد بها صاحبه.

ويستشهد عبد القاهر بادعاء حسان بن ثابت بأنه قادر أن يأتي بكلام يوازي القرآن ويحاذيه، والرد عليه بأنه وإن كان قد نال بعض سبق، إلا أنه لم يصل إلى المدى الذي يعجز عنه غيره، فتمهل أيها المدعي واكفف من غرورك وتيهك.







٤٧- وبهذا التمثل وقعوا في أمر أضعف حجتهم، وأوهى قاعدتهم.

وإذا كان المنع هو حجتهم خاصة فيما يتعلق بالنبوة والقرآن أن يكون في الأمور الظاهرة التي يراها ويسمعاها كل راءٍ وسماع، ولا يكون المنع فيما خفي من الأمور، ولا يعرف إلا بعد الفكر والتأمل، أو في شيء لم يوجد قط.

وقد يكون الأمر ممكناً إذا اجتهدوا فيه وتمرسوا في محاولته، لم يسمع من نبي قط أن قال لقومه: حجتي عليكم أن تمنعوا من أمر لم يكن منكم قط، ولكن يتوهم وجوده منكم وإتيانكم به إذا عاودتم الاجتهاد المرة تلو المرة؛ لأن ذلك لا يقوله عاقل، ولا يقدم عليه إلا مجازف.

وإذا قالوا: إن المنع كان من نظم لم يوجد منهم من قبل، غير أنهم شعروا في قرارة أنفسهم أن باستطاعتهم أن يضاهوه إذا شمرّوا عن ساعد الجد واستفرغوا جهدهم فيه.

إذا قالوا ذلك فقد أضعفوا حجتهم من حيث قد جعلوا برهانهم في المنع من شيء لم يوجد ولم يعلم من قبل، ولكن يظن أو يتوهم إمكانهم عليه إذا ضاعفوا من جهدهم وحشدوا كل قواهم وأدمنوا في الطلب، وكفى بهذا تهافتاً وضحالة.



## فصل

### (ختم الرسالة الشافية)

٤٨ - وهذا فصلٌ أُخْتِمُ به:

يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: مَا هَذَا الَّذِي أَخَذْتُمْ بِهِ أَنْفُسَكُمْ؟ وَمَا هَذَا التَّأْوِيلُ<sup>(١)</sup> مِنْكُمْ فِي عَجْزِ الْعَرَبِ عَنْ مَعَارِضَةِ الْقُرْآنِ؟ وَمَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ؟ وَمَا أُرِدْتُمْ مِنْهُ؟ أَلَّا أَنْ يَكُونَ لَكُمْ قَوْلٌ يُحْكِي، وَتَكُونُوا أُمَّةً عَلَى حِدَةٍ<sup>(٢)</sup>، أَمْ قَدْ أَتَاكُمْ فِي هَذَا الْبَابِ عِلْمٌ لَمْ يَأْتِ النَّاسَ؟

فَإِنْ قَالُوا: أَتَانَا فِيهِ عِلْمٌ.

قِيلَ: أَفَمِنْ نَظَرِ ذَلِكَ الْعِلْمِ أَمْ خَيْرٌ؟<sup>(٣)</sup>

فَإِنْ قَالُوا: مِنْ نَظَرٍ.

قِيلَ لَهُمْ: فَكَيْفَ تَعْنُونَ أَنْكُمْ نَظَرْتُمْ فِي نَظْمِ الْقُرْآنِ وَنَظْمِ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَوَارِثْتُمْ فَوْجِدْتُمُوهُ لَا يَزِيدُ إِلَّا بِالْقَدْرِ الَّذِي لَوْ خُلُّوا<sup>(٤)</sup> وَالْإِجْتِهَادَ وَإِعْمَالَ الْفِكْرِ، وَلَمْ تَفَرِّقْ عَنْهُمْ خَوَاطِرَهُمْ عِنْدَ الْقَصْدِ إِلَيْهِ، وَالصَّمْدَ لَهُ - لَأَتَوْا بِمِثْلِهِ؟

فَإِنْ قَالُوا: كَذَلِكَ نَقُولُ.

قِيلَ لَهُمْ: فَأَنْتُمْ تَدَّعُونَ الْآنَ أَنَّ نَظَرَكُمْ فِي الْفَصَاحَةِ نَظَرٌ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهَا، وَأَنْتُمْ قَدْ أَحَطْتُمْ عِلْمًا بِأَسْرَارِهَا، وَأَصْبَحْتُمْ وَلَكُمْ فِيهَا فَهْمٌ وَعِلْمٌ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ قَبْلَكُمْ.

وَإِنْ قَالُوا: عَرَفْنَا ذَلِكَ بِخَيْرٍ.

قِيلَ: فَهَاتُوا عَرِّفُونَا ذَلِكَ، وَأَنْتَى لَهُمْ تَعْرِيفُ مَا لَمْ يَكُنْ، وَتَثْبِيتُ مَا لَمْ يُوجَدَ!

(١) التأويل: أن يحتمل الكلام أكثر من وجه.

(٢) أمة على حدة: متحدة غير متفرقة ولا خلاف بينكم.

(٣) من نظر أم خير: من الرؤية أو من السماع.

(٤) لو خلُّوا: لو تركوا.

## فصل

### خاتمة الكلام

٤٨- عجز العرب عن معارضة القرآن لرفعة نظمه وجمال لفظه، ولكنكم أولتم ذلك وقلتم: إنهم صرفوا عن ذلك رغم قدرتهم عليه وفصاحتهم، وأردتم بهذا الزعم أن يكون لكم شأن يتحاكى به الناس على مر الأزمان.

فإن كان قد أتاكم علم عن طريق النظر، فنظرتكم إلى نظم القرآن ونظم كلام العرب ووازنتم بين الاثنين، فلم تجدوا إلا فرقاً ضئيلاً يمكنكم أن تستوفوه إذا أنتم اجتهدتم وأعملتم فكركم.

إذا قلتم ذلك فقد ادعيتكم أنكم أحطتم بأسرار الفصاحة، ولكم فيها علم وفهم لم يكن لأحد قبلكم.

وإن كان قد أتاكم العلم عن طريق الخبر، فعرفونا به، وكيف يمكنهم التعريف بشيء لم يكن ولم يوجد قط؟!



(٩) يثلم اليقين: يحدث فيه فجوة وكسراً .



وإذا برق لهم خاطر فنظروا فيه، وتبينوا إلى أين ينتهي، وتذكروا وصية الحكماء بأن أول الكلام يسلم إلى آخره، وعجز القول لا يأتي إلا عن صدره لتجنبوا كثيراً من المزالق التي يؤدي إليها التسرع في القول، وسوء العاقبة إذا أهملت وصية الحكماء، وساروا حسب هواهم فوقعوا في الهلاك والفساد.



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### (فصل في الصرفة)

٤٩ - قول من قال: «إنه يجوز أن يقدر الواحد من الناس من بعد انقضاء زمن النبي ﷺ، ومُضَيَّ وقت التَّحْدِي، على أن يأتي بما يُشَبِّه القرآن ويكون مثله؛ لأن ذلك لا يخرج عن أن يكون قد كان معجزاً في زمان النبي ﷺ، وحين تُحْدِي العربُ إليه» - قول لا يصح إلا لمن لا يجعل القرآن معجزاً في نفسه، ويذهب فيه إلى «الصرفة».

فأمَّا الذي عليه العلماء من أنه مُعْجَز في نفسه، وأنه في نظمه وتأليفه على وَصْف لا يَهْتَدِي الخَلْق إلى الإتيان بكلام هو في نظمه وتأليفه على ذلك الوصف، فلا يصح البتة ذاك - لا فرق بين أن يكون الفعل معجزاً في جنسه كإحياء الموتى، وبين أن يكون معجزاً لوقوعه على وَصْف، وإذا كان كذلك، فكما أنه مُحَال أن يكون ههنا إحياء ميت لا من فعل الله، كذلك مُحَال أن يكون ههنا نظم مثل نظم القرآن لا من فعله تعالى، فهذا هو.

ثم إنه إذا نُقِرَ<sup>(١)</sup> عنه انكشف عن أمر مُنْكَر، وهو إخراج أن يكون وحيًا من الله، وأن يكون النبي ﷺ قد تلقاه عن جبريل عليه السلام - والذهاب إلى أن يكون قد كان على سبيل الإلهام، وكالشيء يلقي في نفس الإنسان ويهدي له من طريق الخاطر والهاجس<sup>(٢)</sup> الذي يهجس في القلب، وذلك مما يُسْتَعَاذُ بالله منه، فإنه تطرُقُ للإلحاد<sup>(٣)</sup>، والله ولي العِصْمَةِ والتوفيق.



(١) إذا نقر عنه: إذا فتش فيه .

(٢) الهاجس: الصوت الخفي الذي يسمع ولا يفهم .

(٣) الإلحاد: الانحراف عن الدين .

٤٩- ومن أقوال الذين نادوا بالصرفة، أنه يجوز للرجل بعد انقضاء زمن النبي ﷺ، وبعد مضي وقت التحدي أن يأتي بما يشبه القرآن، ومعنى ذلك أن القرآن ليس معجزاً في نفسه، بل بأمر خارج عنه.

أما الذين يقولون: إن القرآن معجز في نفسه، وأنه جاء في نظمه ولفظه وتأليفه على وصف لا يهتدي إليه الخلق أبداً، شأنه في إعجازه شأن إحياء الموتى، فكما لا يمكن إحياء الموتى إلا بفعل الله سبحانه، كذلك لا يمكن أن يكون نظم مثل نظم القرآن إلا من الله سبحانه.

وإذا فتشنا في زعمهم أن القرآن معجز بالصرفة، لوجدنا أن في ذلك إنكاراً بأنه وحي منزل على النبي ﷺ، وإنما خطر على ذهنه بدافع الإلهام والهاجس الذي يهجس بالقلب، ولا شك أن هذا القول يتطرق إلى الإلحاد، وذلك مما يستعاذ بالله منه.



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### فصل

#### (في تمييز الكلام بعضه من بعض وما يترتب عليه)

٥٠ - اعلم أن البلاء والداء العياء<sup>(١)</sup> أن ليس علم الفصاحة وتمييز بعض الكلام من بعض بالذي تستطيع أن تفهمه من شئت ومتى شئت، وأن لست تملك من أمرك شيئاً حتى تظفر بمن له طبع إذا قدحته وري<sup>(٢)</sup>، وقلب إذا أريته<sup>(٣)</sup> رأى. فأما وصاحبك من لا يرى ما تريه، ولا يهتدي للذي تهديه، فأنت معه كالنافخ في الفحم من غير نار، وكالملتصم الشم من أخشم<sup>(٤)</sup>، وكما لا تقيم الشعر في نفس من لا ذوق له، كذلك لا يفهم هذا الباب من لم يؤت الآلة<sup>(٥)</sup> التي بها يفهم - إلا أنه إنما يكون البلاء إذا ظن العادم لها أنه قد أوتيها، وأنه ممن يكمل للحكم ويصح منه القضاء، فجعل يخط ويخلط<sup>(٦)</sup>، ويقول القول لو علم غبه<sup>(٧)</sup> لاستحي منه. وأما الذي يحس بالنقص في نفسه، ويعلم أنه قد عديم علماً قد أوتيته من سواه، فأنت منه في راحة، وهو رجل عاقل قد حماه عقله أن يعدو طوره<sup>(٨)</sup>، وأن يتكلف ما ليس بأهل له.

وإذا كانت العلوم التي لها أصول معروفة، وقوانين مضبوطة، قد اشترك الناس في العلم بها، واتفقوا على أن البناء عليها والرد إليها، إذا أخطأ فيها المخطئ، ثم أعجب برأيه لم تستطع رده عن هواه<sup>(٩)</sup>، وصرفه عن الرأي الذي رأى، إلا بعد الجهد، وإلا بعد أن يكون حصيفاً<sup>(١٠)</sup> عاقلاً ثباتاً، إذا نبه انتبه، وإذا قيل: «إن عليك

(١) الداء العياء: المرض الويل . (٢) وري: اتقد واشتعل . (٣) أريته: مكته من الرؤية .

(٤) الأخشم: الذي لا يمكنه شم الرائحة: طيبة أو متنة . (٥) الآلة: الوسيلة .

(٦) يخط ويخلط: يفسد الأمور لإتحام بعضها في بعض . (٧) غبه: عاقبه .

(٨) يعدو طوره: يتجاوز حده . (٩) رده عن هواه: عن رغبته .

(١٠) حصيفاً: ذكياً أريباً .



## فصل

٥٠- ومن البلاء أن علم الفصاحة وتمييز الكلام بعضه عن بعض ليس في مقدور الناس جميعاً، وإنما هو خاص بمن له طبع سليم إذا قدحته اتقد وتقبل الكلام.

أما إذا كان الشخص لا يهتدي بما تريد هدايته به، فأنت معه كالنافخ في الرماد من غير فحم ولا نار، وكمن يعرض الشعر لمن لا ذوق له. فكذلك علم الفصاحة والبلاغة لا يتيسر إلا لمن امتلك آلاته وأسبابه من طبع سليم وذوق رقيق.

والآفة الكبرى والبلاء العميم أن يظن العادم للطبع الفاقد للذوق أنه قد أوتي أسباب البلاغة، وهو منها عارٍ، فتراه يخلط الأمور ويتخبط في الأقوال، ولو علم عاقبة أمره لاستحيى من كلامه.

وأما الذي يحس النقص في نفسه فأنت منه في راحة؛ لأنه يعرف قدره، ولا يتجاوز حده، ولا يتكلف ما ليس له.

والعلوم لها قوانين مضبوطة قد اتفق الناس عليها، فإذا أخلّ بها المرء روجع وصرف عن قوله، ولا يكون ذلك إلا بعد بذل الجهد معه، وإلا إذا كان عاقلاً إذا نبه إلى شيء انتبه إليه، وابتعد أن يتمسك برأي دون حجة. ومن كانت هذه صفته كان نادراً وعزيزاً.

فليس الكلامُ إِذْنٌ بِمُغْنٍ عَنْكَ، وَلَا الْقَوْلُ بِنَافِعٍ، وَلَا الْحُجَّةُ مَسْمُوعَةٌ، حَتَّى تَجِدَ مَنْ فِيهِ عَوْنٌ لَكَ، وَمَنْ إِذَا أَبِي عَلَيْكَ أَبِي ذَاكَ طَبِعَهُ فَرَدَهُ إِلَيْكَ، وَفَتَحَ سَمْعَهُ لَكَ، وَرَفَعَ الْحِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ، وَأَخَذَ بِهِ إِلَى حَيْثُ أَنْتَ، وَصَرَفَ نَظْرَهُ إِلَى الْجِهَةِ الَّتِي إِلَيْهَا أَوْمَأَتْ <sup>(٩)</sup>، فَاسْتَبَدَلَ بِالنَّفَارِ <sup>(١٠)</sup> أَنْسَاءً، وَأَرَاكَ مِنْ بَعْدِ الْإِبَاءِ <sup>(١١)</sup> قَبُولًا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ.



(۱) یغشی أن یكون قد غرّ: خدع.

(٢) أنف أن يلج: ابتعد أن يتمسك .

(۳) نعوّل فی محاجّتهم: تعنّد علیہ فی جدالہم .

(٤) سبر النفوس وفليها: النفاذ إلى أغوار النفس وتفتيشها.

(٥) الأريحية: الارتياح والنشاط .

(۶) صفت قریحتہ: صفا ذہنہ .

(٧) الآفة فيكم: العيب بداخلكم .

(۸) حسیراً: حزیناً کثیلاً مجہداً .

(٩) أومأت: أشرت .

(١٠) النفاق: الحفاء.

(۱۱) الإیاء: الامتناع .

فكيف إذا كان الأمر متعلقًا بالفصاحة، التي يعول فيها على حدة القريحة،  
وذكاء القلب، وصفاء النفس، وصحة الذوق.

وإذا راجعتم في ذلك تبجحوا معكم، فهم أصح قريحة وأصدق نظرًا وأذكى  
حسًّا، والآفة فيك وليست فيهم، فلا تملك إلا أن تقف حزينًا متحسرًا على  
أقوالهم وادعاءاتهم.

وكلامك معهم لا يغني من الأمر شيئًا ولن يعيدهم إلى الصواب، فلا قولك  
معهم بنافع، ولا حجتك فيهم مقبولة. لأن طباعهم خسنة وأذواقهم بليدة.  
أما من يفتح سمعه ويعي كلامك، ويرفع الحجاب الذي أسدل بينك وبينه،  
فإنه يرجع عن جموحه، ويصبح جفاؤه أنسًا وإباؤه قبولًا. والله الموفق.







## فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة المحقق
٧	الإمام عبد القاهر الجرجاني
١٠	أولاً: إعجاز القرآن (دراسة) للدكتور عبد القادر حسين
١٠	معجزة القرآن أبعد معجزات الرسول ﷺ أثراً
١٠	ما قاله بلغاء العرب عن فصاحة القرآن
١١	القرآن معجز للعرب وغير العرب
١٢	* وجوه إعجاز القرآن
١٣	رأي الجاحظ في الإعجاز
١٤	* الصرفة
١٤	رأي النظام
١٧	* الإخبار عن المستقبل
١٨	* أخبار الأمم البائدة
٢٠	* الإعجاز العددي
٢٥	* الإعجاز العلمي
٢٩	* نظم القرآن
٢٩	رأي الباقلاني - عبد القاهر
٣٢	ابن عطية - العلوي
٣٢	محمد فريد وجدي
٣٤	ثانياً: كتاب الرسالة الشافية للإمام عبد القاهر الجرجاني
٣٤	* جُمِلَ من القول في «إعجاز القرآن»
	* الأصل والقدوة في إعجاز القرآن هم العرب، ومن عداهم تبع لهم، والمتأخرون من الخطباء والبلغاء بعد زمان النبي ﷺ، وقول خالد بن صفوان، والجاحظ: أنهما لا يجاريان العرب الأول ولكن يحاكيانهم
٣٦	
٣٨	* «أحوال» العرب و«أقوالهم» حين نُزِّلَ القرآن عليهم
٣٨	الأحوال الدالة على عجزهم حين تحدوا بالقرآن

٤٤	الأقوال الدالة على عجزهم حين تحدوا بالقرآن
٥٢	الاحتجاج لدلالة هذه الأحوال والأقوال على إعجاز القرآن
	* فصل في شبهة من قال: «جرت العادة بأن يبقى في الزمان من يفوت أهله حتى يسلموا له، وحتى لا يطمع أحد في مدانته»
٥٨	والدليل على بطلان ذلك
٦٠	* الأخبار الدالة على اختلاف الناس في أي الشعر أشعر
٦٦	بيان في تقديم الشعراء وتفضيلهم من أي وجه يكون؟
٧٠	* الشرط فيما ينقض العادة (يعني المعجزة) أن يعم الأزمان كلها
	قول الملحة إنه كان في المتأخرين من البلغاء من استطاع معارضة القرآن، فترك إظهاره خوفًا
٧٤	* فصل في فن آخر من السؤال هو: من عادات الناس أن الواحد تواتيه العبارة في معنى، وتمتنع عليه في آخر، والقول فيمن غلب على معنى، فلم يبق لغيره مرام فيه
٧٦	
٨٠	* ما جاء على هذا الوجه من الكلام المنشور
	* إبطال الاحتجاج بمثل ذلك في إعجاز القرآن، وتفصيل القول في معنى «التحدي»
٨٢	
٩٠	* فصل في الذي يلزم القائلين بالصرفة من المعتزلة
٩٦	في سياق آية التحدي ما يدل على فساد قولهم
١٠٨	* فصل، هو ختام الرسالة الشافعية
١٠٩	* فصل خاتمة الكلام
	* فصل في قول من قال: «إنه يجوز أن يقدر الواحد من الناس بعد مضي وقت التحدي، على أن يأتي بما يشبه القرآن»، وهو قول أصحاب «الصرقة»
١١٢	
	* فصل هو ختام الرسالة الشافعية في أن تميز الكلام بعضه من بعض، لا تستطيع أن تفهمه من شئت متى شئت
١١٤	
١١٩	الفهرس







الدكتور / عبد القادر عيسى

## هذا الكتاب

وكتاب الرسالة الشافية في الإعجاز لإمام البلاغيين  
الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) كتاب جم  
الخطر، كثير النفع لما فيه من تحليل شافٍ ومناقشة  
رائعة وعمق شديد وقد اعتري الكتاب شيء من الغموض  
في بعض عباراته بحيث لا يكتشف المعنى في وضوح تام  
فرايت أن أوضح ألفاظه وأفسر معانيه فكان شرح اللفظ  
في هامش الصفحة اليمنى التي وضع فيها نص كتاب  
الرسالة الشافية وتفسير المعنى في الصفحة اليسرى  
المقابلة للنص. كما أردت أن أهد لأراء عبد القاهر في  
الإعجاز بذكر أقوال العلماء السابقين واللاحقين  
حتى ينكشف الرخبي وتعم الفائدة.

- حصل على الدكتوراه ١٩٧٠ م بمرتبة الشرف الأولى.  
وعنوانها أثر النحاة في البحث البلاغي.  
- وهو أستاذ ورئيس قسم البلاغة بجامعة الأزهر وله ثلاثون  
كتاباً في البلاغة والحديث والتفسير ما بين مؤلف ومحقق  
كفن البلاغة وفن البديع والقرآن والصورة البيانية ومن  
الكتب المحققة: الإكسير في علم التفسير للطوفي والإشارات  
والتنبيهات في علم البلاغة للجرجاني والإيضاح للخطيب القزويني  
وخلاصة المعاني للمفتي وأصول البلاغة لميثم البحراني وغيرها  
من المؤلفات الشهيرة.

- وناقش الكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه وحضر  
العديد من المؤتمرات الأدبية والبلاغية في مصر، ومخارجها

